الحملة الإيطالية على مدينة المهدية في تونس سنة ٤٨١هـ/١٠٨٧م

دعوى الصراع ومقتضى الحوار

د. خالد عبد البديع

جامعة جازان-المملكة العربية السعودية

ظروف حوض البحرالمتوسط فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادي:

شهد التاريخ الوسيط صراعًا طويلاً ومريرًا بين العالمين الأوربي والإسلامي، وكان هذا الصراع في جوهره دينيًا وإن اتخذ علي طول وتعدد مراحله أثوابًا مختلفة. وكان حوض البحر المتوسط حلقة من حلقات هذا الصراع إذ استولي المسلمون إبان حركة الفتوح بين القرنين الأول والرابع الهجريين (السابع والعاشر الميلاديين) علي جزيرة قبرص، ثم فتحوا إسبانيا، واقتحموا البحرين الأدرياتيكي والتيراني، وصارت في أيديهم جزر البليار وكورسيكا وسردينيا وكريت وصقلية، وفرضوا سيطرتهم علي معظم السواحل الأوربية، حتى صار البحر المتوسط في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تقريبًا بحرًا إسلاميًا بعد أن كان رومانيًا.

وجاء بعد ذلك المسلمون السلاجقة مهددين القسم الشرقي من أوربا، والحقوا الهزيمة بالجيوش البيزنطية في موقعة مانزكرت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حيث باتوا بعدها على مشارف القسطنطينية[١]. كان الميزان السياسي والتجاري في البحر المتوسط – والحال كذلك– يميل لصالح المسلمين.

هبت أوربا من أقصاها إلى أقصاها لتواجه هذا التحدي، وجاء دورها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي لمواجهة العالم الإسلامي الذي غلب عليه الضعف، خصوصًا القسم الغربي منه الذي صار ممزق الأوصال معدوم الترابط، كل قطر من أقطاره

(١) Michel Psellus, *Chronographie*, 2 vols, trad. Emile Renauld, Paris, 1967, t.2, liv.7, pp. 161- 163. voir aussi Vasiliev (A.), *Hist. de l' empire byzantine*, trad. P. Borguina, tom. 2 (1081- 1453), Paris, 1932, p. 72.

لديه من المشاكل ما يكفيه. وهذا ما كانت تنتظره القوي الأوربية لبدء هجومها الصليبي الكبير، ردًا منها على حركة الفتوحات الإسلامية[٢].

لقد غلبت على أوربا مشاعر التعصب والكراهية نحو العالم الإسلامي، وشهد القرن الحادي عشر الميلادي – زمن إنفاذ حملتها على المهدية– أفكارًا وأراءًا تنفث سموم البغضاء. نبتت هذه الأفكار في القسم الغربي من أوربا حيث دير كلونى فى فرنسا[٣] الذى كان قادته منذ القرن العاشر يشجعون جموع المسيحيين على التوجه إلى إسبانيا، للقتال ضد المسلمين، وطردهم نهائيًا منها، وهو ما تحقق فى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

كما وجد أصحاب الآراء المتشددة تربة صالحة أيضًا فى بلاط البابوية التي اعتنقت بدورها مبادئ دير كلونى الإصلاحية، وتخلصت في النصف الثاني من القرن الحادى عشر من مشاكلها: التدخل العلماني في الشؤون الكنسية، وزواج رجال الدين، وبيع الوظائف الكنسية. وقد خاضت في سبيل ذلك حربًا شعواء ضد ملوك وحكام وأمراء أوربا، وحتى ضد الأساقفة الذين رفضوا بداية الأمر تنفيذ المراسيم البابوية[٤].

لم يُقلق توغل المسلمين فى البحر المتوسط البابوية فحسب، بل وازعج هذا الأمر المدن الإيطالية التي أصبح لديها منذ القرن العاشر الميلادى أساطيل قوية يمكنها القيام بأعباء حربية إلى جانب مهامها التجارية، ولذلك يمكن القول أن أوربا انشغلت من غربها إلى شرقها فى مشاريع عسكرية ضد المسلمين فى حوض البحر المتوسط، وكانت ميادين هذه الحروب في سواحل اليونان شرقًا، وفي إيطاليا، وصقلية، والأندلس غربًا، تلك المشاريع التى اصطلح

---

(٢) ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري (٦٦٨– ٧٩٢هـ/ ١٢٧٠– ١٣٩٠م)، عمان– الأردن، ١٩٩٨، ص ١٠– ١١، ١٢٩.

(٣) تأسس دير كلوني في شمال فرنسا سنة ٩٠٩م، وحملت مبادئه البذور الأولي للإصلاح الكنسي في أوربا العصور الوسطى، والسعي إلي تخليص المسيحية من الشوائب التي علقت بها، للمزيد من التفاصيل راجع:
Cowdrey (H.), *The Cluniacs and the Gregorian reform*, Oxford, 1970, pp.4-8;
Tellenbach (G.), *The Church in Western Europe from 10th to Early 12th Century*, En. Trans., T. Reuter, Cambridge, 1993, pp. 105-106.

(٤) للمزيد من التفاصيل عن جهود البابوية لإتمام الإصلاح الكنسى وأحداث صراعها مع القوى العلمانية ، انظر: خالد عبد البديع، العلاقات بين البابوية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية " ١٠٢٩– ١١٩٤م"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩، ص ١١٧– ١٣٠.

البعض عليها اسم " الحرب المقدسة" أو "حرب الاسترداد"[٥] Guerre Sainte et Reconquête Chrétienne.

لقد حمل الأباطرة المقدونيون – بباعث الدين– راية الحرب ضد المسلمين في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط [٦]، وفي الغرب الأوربي بشر دير كلوني لهذه الحرب. ثم تلقفت البابوية هذه الدعوة، وحرضت على قتال المسلمين شرقًا وغربًا[٧]، وأعلنتها حربًا مقدسة، فوعدت من يشارك فيها ويسقط قتيلاً بغفران من الذنوب، كما أنذرت من يتخاذل عنها بحرمان من رحمة الكنيسة، وسلسلة من اللعنات يقيد فيها حتى يوم القيامة[٨].

ولا غرابة في أن يشهد القرن الحادى عشر بصفة خاصة خروج الحملة الأوربية على مدينة المهدية الإسلامية، لما كان باديًا من تعصب وكره أظهرتهما البابوية ومن ورائها الغرب الأوربى نحو العالم الإسلامي، وعليه ألم يكن حتميًا أن جاءت الحروب الصليبية في نهايات القرن نفسه؟

على أنه يمكننا القول أن هناك أسبابًا أخرى غير دينية أدت إلى خروج الحملة الأوربية ضد مدينة المهدية، من هذه الأسباب ما ارتبط بعوامل اقتصادية، وبأخرى سياسية، ولا يمكن بأى حال الكشف عنها دون الإحاطة بالموقع الجغرافى الذى احتلته المهدية، والظروف السياسية التى شغلت المدينة فى القرن الحادى عشر الميلادى.

الأوضاع السياسية والتجارية فى مدينة المهدية قبيل سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٧م:

أقيمت مدينة المهدية على بروز ساحلى يشبه كف اليد، يندفع فى البحر المتوسط، وهى تقع على بعد ٢٠٠كم جنوب عاصمة تونس حاليًا[٩]. و تنسب هذه المدينة إلى عبيد الله المهدي أول أئمة الفاطميين فى إفريقية (٢٩٧– ٣٢٢هـ/ ٩٠٩– ٩٣٤م) فتذكر المصادر الإسلامية أنه استقر في مدينة القيروان أواخر القرن الثالث الهجرى، وورث مُلك "الأغالبة" في إفريقية

---

(٥) Flori, J., *La guerre sainte: la formation de l'idée de croisade dans l'occident chrétien*, Paris, 2001, p. 262 et suivants.

(٦)انظر التفاصيل، عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية (٩٦٩– ٩٧٦م)، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص٧ وما بعدها.

(٧) المعروف أن البابا جريجورى السابع (١٠٧٣– ١٠٨٥م) دعى فى سنة ١٠٧٤م إلى خروج جيش من مسيحي الغرب الأوربى لإنقاذ القسطنطينية من هجمات الأتراك السلاجقة، انظر: Cowdrey (H.), "Martyrdom and the first Crusade" , in: *Crusade and Settlement*, ed. P. W. Edbury, Cardiff, 1985, pp.46-56, esp. 4.

(٨) Flori, *la guerre sainte*, pp. 272- 276, 278- 292.

(٩) *E. I.*, Leiden, 1986, vol. 5, p. 1246.

وصقلية[١٠]. ولما نجحت دعوته الشيعية، قرر اتخاذ عاصمة له، يأمن فيها من أعدائه، فاختار موضعًا حصيناً على ساحل البحر بين مدينة القيروان إلى الجنوب الشرقى ومدينة سوسة غربًا، وبنى عليه عاصمته التى أسماها المهدية، واستغرق بنائها خمس سنوات بين (٣٠٣-٣٠٨هـ).

حصن "المهدي" عاصمته جيدًا، فأحاطها بالأسوار السميكة المرتفعة، وتخلل هذه الأسوار بوابات حديدية ذات مصاريع من الصلب[١١]. كما اهتم بميناء المدينة الذى كان خليجًا مائيًا ضيقًا، بين مرتفعات صخرية، وكان- حسب رواية ابن خلدون- يسع مائة سفينة[١٢]، واستغل المهدي وجود مرتفعين صخريين على جانبي الخليج، فأقام برجين كبيرين عليهما، وربط بينهما بسلسلة حديدية ضخمة، ليتحكم من خلالها فى مرور السفن، كما شحن البرجين بالمقاتلين ورماة السهام، وألحق بهما آلات لصب الزيت المغلي والنفط المشتعل على رؤوس الغزاة الذين قد يأتون من ناحية البحر[١٣].

---

(١٠) قامت الدعوة الفاطمية في شمال أفريقيا علي أكتاف أبناء قبيلة كتامة من البربر الذين استولوا في سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨م علي مدينة القيروان عاصمة الأغالبة، ومهدوا المُلك لعبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين، للمزيد انظر: ابن خلدون، تاريخه، بيروت، ٢٠٠٠، ج٤، ص٤٤- ٤٧؛ وعن علاقة الفاطميين بقبائل كتامة، ودور هذه القبائل في تدعيم أركان الدولة الفاطمية، انظر: Jadla, I., Les Fatimides et les Kutama", Art. pp. 503- 511, dans, M. E. F. R. , Paris, 2003, t. 115 (1)". وإفريقية يُقصد بها هنا ولاية تونس، وكان المسلمون يُريدون بها أول قسم من أقسام المغرب الكبير وهو المغرب الأدنى تمييزًا عن المغربين الأوسط والأقصى، وبذلك يختلف المُراد بولاية إفريقية بكسر الهمزة وتشديد الياء الثانية عن كلمة أفريقيا بفتح الهمزة وتخفيف الياء الثانية ويقصد بها القارة الأفريقية ككل، وهي مأخوذة من الأصل اللاتيني Africa الذي عممه الرومان قديمًا علي القسم الشمالي من القارة، وقد جعل الجغرافي العُمري حدود ولاية إفريقية من مدينة برقة الليبية شرقًا حتى مدينة تدلس الجزائرية غربًا، ويحدها البحر المتوسط من الشمال وغانة في أقصى الصحراء الكبرى جنوبًا. ومن أهم حواضر ولاية إفريقية: القيروان، والمهدية، وسوسة، وصفاقس، وبنزرت، وقابس، انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع، تحقيق: د. حمزة عباس، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ص ١٣٨- ١٤٤، انظر المزيد عن ذلك في: ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة القاهرة، ١٩٠٦، ج١، ص ٣٠٠- ٣٠١؛ الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص ٧٩؛ ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: د. الطاهر بن محمد المعموري، سكره، ١٩٨٤، ص٣١.

(١١) انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس "من كتاب نزهة المشتاق"، ليدن، ١٨٦٤، ص١٠٨؛ ابن مقديش، نزهة الأنظار، مخطوط بجامعة الملك سعود، رقم ٩١٥،٣/ ن.م- ٦٧٦، ورقة ٢٢.

(١٢) ابن خلدون، تاريخه، ج٤/ ٤٩.

(١٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة طهران ١٩٦٥، ج٤/ ٦٩٣- ٦٩٦.

والمعروف أن "المهدي" انتقل إلى المدينة الجديدة فى سنة ٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م، حيث جعل منها عاصمة لملكه فى شمال أفريقيا. ولم يلبث أن بنى إلى جوارها مدينة أخرى صغيرة أسماها زويلة، أسكن فيها أرباب الحرف، وأصحاب الحوانيت من التجار والبائعين، وحصنها كذلك بأسوار عالية من الحجر(١٤). وقد زار الجغرافى ابن حوقل مدينة المهدية فى سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٨م، ووصف أسوارها وأبوابها القوية، كما تحدث عن قصورها الجميلة، ودورها النظيفة، وفاكهتها الجيدة. ولم يفت هذا الجغرافى أن يلاحظ الازدهار التجارى الذى لمسته مدينة المهدية، ومدى ما أصابه أهلها من أرباح وافرة، وثروات كبيرة(١٥).

نقل الخلفاء الفاطميون مقر حكمهم من مدينة المهدية إلي مدينة القيروان قبيل نهاية النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وذلك بعد أن واجهوا ثورة خطيرة من البربر(١٦). على أن المهدية لم تفقد أهميتها الإستراتيجية؛ فأسس الفاطميون فيها ترسانة لصناعة السفن التي كانوا يرسلونها لمهاجمة السواحل الأوربية. كما احتفظت هذه المدينة بمكانتها التجارية حيث استقبل ميناؤها السفن الرائحة والغادية سواء أكانت أوربية أم إسلامية، وانصبت فى طرقاتها السلع والبضائع التجارية من كل نوع، وبالتالى عرف الثراء طريقه إلى أهلها.

ولم يلبث الفاطميون أن نقلوا مقر حكمهم إلى مصر سنة ٣٦٢ه/ ٩٧٥م، واتخذوا فيها القاهرة عاصمة لهم(١٧)، وتركوا نيابة عنهم في حكم إفريقية والمغرب زعيم قبائل صنهاجة "يوسف" (بُلكين) ابن زيري ابن مناد، فصارت له كل أملاك الفاطميين في الغرب "(١٨).

اتخذ بنو زيري مدينة القيروان مقرًا لهم، وظلوا أوفياء للدولة الفاطمية حتى خلع الحاكم الزيرى المعز ابن باديس(٤٠٦- ٤٥٤هـ/ ١٠١٥- ١٠٦٢م) طاعتها في سنة ٤٤٠هـ/

---

(١٤) الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ١٠٩؛ ياقوت الحموي، معجم، ج٤/ ٦٩٦.

(١٥) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٣- ٧٤؛ كما روى الإدريسي عن رواج التجارة وانتشار الأسواق في مدينة زويلة،انظر: المغرب وأرض السودان، ص ١٠٩.

(١٦) هي ثورة مخلد ابن كيراد (أو كيداد) الزناتي، وهو من أهل قسطيلة، وكان يميل إلى مذهب الخوارج الصفرية. وقد استولى على أملاك الفاطميين سوى مدينة المهدية التى تحصن فيها خلفاؤهم. واستمرت ثورته بين سنتى (٣٢٢- ٣٣٦ هـ/ ٩٣٤- ٩٤٨م)، حين تمكن الفاطميون بمساعدة قبائل صنهاجة من هزيمته وقتله، انظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢١٦- ٢٢٠؛ ابن خلدون، تاريخه، ٤/ ٥٢- ٥٧.

(١٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص ٩٧- ١٣٥.

(١٨) جعل الفاطميون كل المغرب لبني زيري سوى صقلية التي ولوا عليها الحسن ابن على ابن أبى الحُسين الكلبي، انظر: ابن عذارى، البيان ، ج١/ ٢٦٨؛ ابن خلدون، تاريخه، ٤/ ٦٣؛ المقريزي، اتعاظ، ١/ ٢٤٧.

١٠٤٨م، وأعلن انحيازه للمذهب السنى، وأقام الدعوة على المنابر للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢- ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠- ١٠٧٥م)[١٩].

جاء رد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧- ٤٨٧هـ / ١٠٣٥- ١٠٩٥م) على هذه الخطوة عنيفًا، فأرسل فى سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥٠م إلى القيروان جموعًا من عرب بنى هلال وسُليم وغيرهم، انتشروا فى شمال أفريقيا مثل الجراد على حد ذكر المقريزي" لا يمرون بشئ إلا أتوا عليه"، وهزموا جنود المعز الزيرى غير مرة، مما اضطره إلى مغادرة القيروان فى سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٦م، واللجوء إلى مدينة المهدية، التى أغلق أبوابها عليه، فدخل العرب مدينة القيروان فى العام نفسه وخربوها[٢٠].

نتج عن ذلك أن سقطت هيبة الزيريين، وضاعت أملاكهم بذهاب هيبتهم، ولم يبق لهم سوى مدينة المهدية[٢١]، فتقاسم العرب والأسرات البربرية القوية الحكم فى مدن شمال أفريقيا "واتصلت الفتنة بينهم، فخربت إفريقية بأسرها"[٢٢]، وبذلك ضاع الاستقرار السياسي الذي جاهدت الأسرة الزيرية لإقامته في شمال أفريقيا منذ القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

جاء الحاكم الزيرى الجديد تميم ابن المعز(٤٥٤- ٥٠١هـ / ١٠٦٢- ١١٠٨م) مثقلاً بأعباء استرداد الأملاك التى خسرها أبوه، كما حمل على عاتقيه مهمة النهوض بدولته من جديد، واستعادة نفوذه في شمال أفريقيا. خاض تميم فى سبيل تحقيق ذلك حروبًا عديدة ضد قبائل العرب، وضد بني حماد – أبناء عمومته– في الجزائر، وضد قبائل البربر فى المغرب: كُتامة وزناتة وغيرهم[٢٣].

---

(١٩) ابن خلدون، تاريخه، ٤/ ٧٩.

(٢٠) المقريزي، اتعاظ، ٢/ ٢١٦- ٢١٨؛

وراجع أيضًا المقال المهم عن بنى هلال ونفوذهم في شمال أفريقيا، Dighfous, R.., "Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifriqiya à la fin du moyen âge", pp. 491- 501, Art. dans, M. E. F. R, Paris, 2003, t. 115 (1).

(٢١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، قسم ٤، مجلد ٢، ١٩٧٩، ص ٦١٤.

(٢٢) المقريزي، اتعاظ، ٢/ ٢١٨.

(٢٣) انظر تفاصيل ذلك فى، ابن خلدون، تاريخه، ٦/ ٢١١ وما بعدها؛ وعن حروب تميم ضد مدينة صفاقس والحماديين فى عاصمتهم القلعة، وضد مدينة طرابلس، انظر التفاصيل فى: ابن غلبون الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب" تحقيق: الطاهر الراوى، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ص ٢٩- ٣٥، وما بعدها. وينتسب بنو حماد إلى حماد ابن بُلكين الزيرى، وهم فرع من بني زيري، استقلوا عن بني عمومتهم حكام القيروان سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦م. واتخذوا عاصمة تُسمى القلعة قرب مدينة قسنطينة في الجزائر سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م، انظر: عبد الحليم عويس، دولة بنى حماد، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٨ وما بعدها، ص ٨٠ وما بعدها.

وكان من نتيجة ذلك أن اكتسب تميم الزيرى شهرة واسعة بوصفه واحدًا من كبار الحكام فى شمال أفريقيا، فاستعاد من ثم هيبته، وبات مرهوب الجانب من بقية الحكام، مما أتاح له بعد ذلك أن يتفرغ إلى شئون التجارة، فاعتنى بصناعة السفن وأصبح يمتلك أسطولاً كبيرًا فى البحر المتوسط، ولكنه فوجئ بالسفن الأوربية تحاصر مدينته المهدية فى سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٧م، فما الأسباب التى دفعت الأوربيين إلى ذلك؟

دعوة البابوية إلى خروج حملة على مدينة المهدية:

ذكرنا أن أوربا كانت فى هذا الوقت مهيأة لاتخاذ أعمال حربية ضد العالم الإسلامي، وقد دعمت البابوية هذا التوجه، وشجعت عليه. فكثيرًا ما حثت المسيحيين على المشاركة فى الحروب ضد المسلمين فى الأندلس، وشجعت النورمان على انتزاع جزيرة صقلية، ثم توجت جهودها فى هذا المجال بالدعوة إلى خروج الحملات الصليبية نحو الشرق الإسلامى فى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

كانت البابوية تسعى إلى سيادة أوربا والعالم المسيحي، وذلك من خلال نظرية السمو البابوي التي وضع لبنتها الأولى البابا "جريجوري السابع"(٢٤). واجهت البابوية – تحت وطأة هذه النظرية– المشاكل التي تعرض لها الغرب الأوربي، فاعتبر الباباوات أنفسهم المدافعين الرئيسيين عن الرعايا المسيحيين ضد ظلم حكامهم، كما تصدوا للمنازعات التي كانت تنشب بين الحكام والملوك المسيحيين وبعضهم البعض، فنصب الباباوات من أنفسهم حكامًا للفصل في هذه المنازعات، وأصدروا القرارات التي كان لزامًا على المتنازعين تنفيذها.

وكان طبيعيًا أيضًا أن تدخل البابوية – وهى معقل الكاثوليكية الأول– في خلافات مع المذاهب والنحل الدينية الأخرى، فخاضت صراعًا شرسًا مع كنيسة القسطنطينية رأس المذهب الأرثوذكسي في القسم الشرقي من أوربا، ولم تأل البابوية جهدًا في انتقادها، وتوجيه الاتهامات إلى القائمين عليها بأنهم منشقين ومجدفين، وأن أتباعها من الأرثوذكس منحرفين عن الملة القويمة(٢٥)، وعليه اعتبرت البابوية أن القيام بحرب صليبية ضد أعداء المسيح إنما يقع فقط علي عاتق شعوب غرب أوربا من الكاثوليك: أصحاب الدين الصحيح.

---

(٢٤) Fliche, A., *La réforme Grégorienne*, Genève, 1978, vol. II, Chapitres, 4, 5.

(٢٥) أدت الخلافات بين كنيستي روما والقسطنطينية إلى قطيعتين ٨٦٩م و١٠٥٤م، انظر: Ruinaut (J.), *Le Schisme de Photius*, Paris, 1910, pp. 13- 55, Dvornik (F.), "*Le Second Schisme de Photius*", *BZ*, 8/2, 1933, pp. 425- 474؛ إسحق عبيد، روما وبيزنطة ، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٧– ٢٠، ٢١– ٣٩.

والحقيقة أن البابوية كرهت مسلمي شمال أفريقيا وسخطت منهم، لأنهم دخلوا جزيرة صقلية فى القرن التاسع الميلادى، وهاجموا سواحل إيطاليا، حتى بلغوا نهر التيبر فى القرن نفسه[٢٦]، وفرضوا الجزية على كنيسة روما.

استغاث البابوات بحكام أوربا وقادتها لمحاربة "الغزاة المسلمين"[٢٧]، فأعلن البابا جون الثامن (٨٧٢– ٨٨٢م) أن هذه الحرب إنما هي حربًا مقدسة، وأن ضحاياها من المسيحيين إنما هم شهداء، وأن دماء جرحاهم إنما تقدم لهم المغفرة من آثامهم[٢٨].

على أن هذا لم يوهن عزيمة المسلمين، فواصلوا هجماتهم على السواحل الإيطالية [٢٩]، وقد ذكرت الحوليات الإيطالية أخبار هذه الغزوات وإن كانت تواريخها غير مطابقة تمامًا لتواريخ المصادر الإسلامية وإنما كانت مقاربة[٣٠]. وكان لظهور مدينة المهدية كقاعدة رئيسة على الساحل الأفريقي دور مهم في تواصل الحملات الإسلامية على إيطاليا، لذلك باتت عرضة لنقمة البابوية والغرب الأوربي.

سعت البابوية – متمسكة بحقها في تأمين إيطاليا والجزر التابعة لها بمقتضى "هبة قنسطنطين"[٣١]– بكل وسيلة إلى طرد المسلمين من صقلية. بل وحاولت أيضًا تطهير الجنوب

---

(٢٦) هاجم المسلمون في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إمارات الجنوب الإيطالي: كابوا وسالرنو وبنفنتو فضلا عن مدينة روما نفسها، وقد ذكرت حوليات إيطاليا أخبار هذه الحملات بألم ومرارة، للمزيد طالع: *Chronica S. Benedicti*, M. G. H. SS. Vol. 3, p. 205; *Chronicon Comitum Capuae*, M. G. H. SS, Ibid, p. 208; *Chronicon Casinense*, M. G. H. SS, Ibid, pp. 223- 225; *Erchemperti Historia Langobardorum*, M. G. H. SS, Ibid, p. 246.

(٢٧) Chalandon (F), *Hist. de la première croisade jusqu' à l' élection de Godefroi de Bouillon*, New .York, 1972, pp. 9- 10.

(٢٨) Riant (P.), "Inventaire critique des lettres historiques des croisades", *Archives de l'Orient Latin*, t. I, p. 22; Erdmann, the Origin…, pp. 27- 28.

(٢٩) راجع: ابن عذارى، البيان، ١/ ١٨٧– ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣– ١٩٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٨٧،ج. ٧، ص ٢٥، ١١٥، ٢٢٤– ٢٢٥؛ ابن خلدون، تاريخه، ٤/ ٥٢، ٥٨، ٢٦٥.

(٣٠) See: *Annales Benventani*, M. G. H. SS, vol. 3, pp. 175- 177; *Lupus Protospatarius, Chronicon*, M. G. H. SS, vol. 5, pp. 53- 57; Romoald of Salerno, *Annales* 893- 1178, M. G. H. SS, vol. 19, pp. 400- 401.

(٣١)هبة قنسطنطين Constitutum Constantini أو Donation of Constantine هى وثيقة كُتبت في القرن الثامن الميلادى فى صورة مرسوم نُسب إلى الإمبراطور قنسطنطين (٣٠٦– ٣٣٧م) الذي وجهه إلى البابا سلفستر الأول (٣١٤– ٣٣٥م)، والمرسوم مكتوب فى ٣٠٠ سطر: حيث ورد فى السطور (١– ١٥٥) إقرار قنسطنطين باعتناق المسيحية، وفى السطور (١٥٨– ٣٠٠) وردت المنحة التى أعلن فيها الإمبراطور أن مقعد أمير الرسل بطرس يجئ فى مكانة سامية فوق كل المقاعد الدينية الأخرى، وتنازل الإمبراطور عن قصر اللاتيران للبابوات ممثلى الرسول بطرس، وأمر ببناء كنيسة فى روما يتم تكريسها للمسيح، كما أعطى للقائمين

الإيطالي من الوجود البيزنطي، فشجعت النورمان – الذين وفدوا حديثًا من شمال فرنسا– على طرد البيزنطيين من أيطاليا، وعلى استرجاع صقلية إلى حوزة العقيدة الكاثوليكية[٣٢].

أتم النورمان المهمة بين سنتي (١٠٦٠– ١٠٩١م)، وكانت سعادة البابوية بذلك غامرة "إذ تخلصت صقلية من العبودية الغاشمة" حسب قول البابا أوربان الثاني (١٠٨٨– ١٠٩٩م)[٣٣].

حاول أمير المهدية المُعز بن باديس مواجهة غزو النورمان لصقلية منذ البداية ولكنه فشل، ثم جاء ابنه تميم فأرسل سفنه بعد سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م تحت قيادة ابنيه "أيوب" و"على"، ولكنهما عادا خائبين إلي المهدية سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨م[٣٤]، ولم يستسلم تميم فأرسل سفنه للإغارة على جنوب إيطاليا سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٤م، وعلى مدينة مازره في صقلية سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م، إلا أن قواته واجهت الهزائم على أيدي النورمان[٣٥]. وعلى الرغم من ذلك مارس تميم الزيرى – حرصا علي الجهاد في سبيل الله– نشاطًا واسعًا في البحر المتوسط، فشنت سفنه غارات على المراكب المسيحية التي كانت تمر أمام سواحله، كما هاجمت سفنه الشواطئ الإيطالية.

على هذه الكنيسة كل السلطات والامتيازات، وأخيرًا أعلن الإمبراطور تنازله للبابا سلفستر وخلفائه عن مدينة روما، وإقليم إيطاليا، وكل القسم الغربى من الإمبراطورية، انظر المرسوم كاملاً في: *Documents of the Christian church*, ed. Henry Bettenson, Oxford, 1967, pp. 98- 101; D. M. A, Vol. 3, New York, 1984, pp. 493- 503.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل، راجع: خالد عبد البديع، العلاقات بين البابوية والنورمان، ص ٦٥– ٦٨.

(٣٣) *Bullarum Diplomatum et Privilegiorum*, tomus II, De Alexandro II (1061) ad Alexandrum III (1181), Taurino, 1865, pp. 112- 113; *Recueil des acts des ducs normands d' Italie* (1046- 1127), t. 1, Bari, 1980, pp. 98- 101. اضطربت أحوال صقلية بعد زوال حكم الأسرة الكلبية التي ضبطت أمور الجزيرة بين سنتي (٣٣٥– ٤٢٧هـ/ ٩٤٧– ١٠٣٨م)، فقسم ثلاثة من القادة حكم الجزيرة بينهم؛ فاستقل عبد الله ابن منكوت بمازره، وانفرد ابن الحواس بقصريانة (كاسترو جيوفانى) وجرجنت (أجريجنتى)، واختص ابن الثمنة بسرقوسة (سيراكوزا) و قطانية (كاتانيا)، ثم دب النزاع بينهم، فاستعان ابن الثمنة بالقائدين النورمانيين: روبرت جويسكارد وشقيقه روجر، اللذان بدءا غزو صقلية سنة٤٥٠ه/ ١٠٦٠ م، ثم استولى روجر على الجزيرة نهائيًا سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م، انظر: ابن الأثير، الكامل ، ٨/ ٤٧١– ٤٧٤؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ج٢/ ٢٠١.

(٣٤) ابن الأثير، الكامل، ٨/ ٤٧٣– ٤٧٤، أيضًا انظر؛ Chalandon (F.), *Hist. de la domination Normande*, Paris, 1907,v.1, pp. 201-205.

(٣٥) Geoffry Malaterra, *Deeds of Count Roger of Calabria and Sicily*, trans. Kenneth B. Wolf, U. S. A., 2005, Book 3, pp. 138- 139.

وما لا شك فيه أن جهود تميم هذه جاءت ردا علي غزو النورمان لصقلية، على أن غير واحد من المؤرخين الغربيين المحدثين اعتبر ذلك أعمال قرصنة أمثال: إرنست مارسيه[٣٦]، وهربرت كودري[٣٧]، وهنري بيرين[٣٨]، وجورج مارسيه[٣٩]، وجوزيف شاخت[٤٠]. هؤلاء اعتمدوا علي ما ذكرته المصادر والحوليات الأوربية التي عكست روح التعصب في العصور الوسطي، ولم يُكلفوا أنفسهم بمراجعة هذه الأخبار، ومطابقتها بما ورد في المصادر الإسلامية، لو فعلوا ربما أمكنهم عند ذلك الخروج بآراء موضوعية لا تعرف المغالاة.

مهما يكن من أمر فقد أثارت هجمات تميم الزيري علي المسيحيين في البحر المتوسط سخط البابوية، وتصاعد عداء الغرب الأوربي له حتى صورته المصادر الغربية بأوصاف من قبيل: عدو المسيح ومتوحش وشرير وأحمق ومتكبر ووضيع وملعون وغدار[٤١].

اتخذت البابوية خطوة ضد تميم، وكان ذلك بتشجيعها أعداءه في الشمال الأفريقي أمثال الحماديين في عاصمتهم "القلعة"، فخاطب البابا جريجوري السابع ود الأمير الحمادي الناصر (٤٥٤-٤٨١هـ / ١٠٦٢ –١٠٨٨م)، وكتب إليه سنة ١٠٧٦م يشكره على تحريره بعض الأسرى المسيحيين[٤٢]، ويذكر المؤرخ "كودري" أن البابا بذلك كان يمهد إلى حشد قوى إسلامية ومسيحية ضد تميم؛ بسبب تدخله في صقلية، وهجماته علي المسيحيين، ويضيف المؤرخ نفسه أن كل ذلك مهد الطريق إلى إعداد حملة انتقامية ضد هذا الحاكم[٤٣].

وقد واصل البابا فيكتور الثالث (١٠٨٥– ١٠٨٧م) جهود سلفه، ونادي بخروج حملة عسكرية ضد تميم، فلقي استعدادًا من المدن الإيطالية: بيزا وجنوه وأمالفى للقيام بالحملة، كما

---

(٣٦) Marciei (E.), *Hist. de l' Afrique Septentrionale*, Paris, 1888, vol. II, p. 42.

(٣٧) Cowdrey (H. E.), 'The Mahdia Campaign of 1087',. *HER* 92/362 (Jan, 1977), pp. 1-29, esp. 8.

(٣٨) هنري بيرين، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة: د. عطية القوصي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١– ١٢.

(٣٩) ج. مارسيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، إسكندرية، ١٩٩١، ص ٢٥٣.

(٤٠) ج. شاخت، ك. بوزورث، تراث الإسلام، ج١، سلسلة عالم المعرفة، عدد (٨)، ص ٢٦٥– ٢٦٦؛ أيضا انظر: Runciman (S.), *A History of the Crusades*, U. K, 1956, vol. 1, pp. 88- 89; Jehel (G), *L` Italie et le Maghreb au moyen âge (7- 15) siècle*, Paris, 2001, p. 41.

(٤١) *Chronica Monasterii Casinensis*, Hanover, 1980, vol. 3, 71, p. 453.

(٤٢) *Epistolae Gregorii VII*,S.C.N.A, ed. Mansi, t. 20, Lib. 3, n. 21, pp. 205-206.

(٤٣) Cowdrey, "The Mahdia Campaign", p. 9.

قدمت الكونتيسة ماتيلدا أميرة توسكانيا فرقة من الجنود، وخرجت أيضا فرقة من مدينة روما[٤٤]، وبذلك اختصت إيطاليا وحدها بأعباء الحملة العسكرية علي مدينة المهدية.

الدوافع وراء مشاركة مدينتي بيزا وجنوه في الحملة على المهدية:

لكي نعرف الأسباب التي دفعت هذه المدن إلى المشاركة في الحملة يجدر بنا أن نلقى الضوء على أوضاعها السياسية والتجارية في القرن الحادي عشر الميلادي.

شهد الاقتصاد الأوربي تراجعًا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في الوقت الذي ازدهر فيه الاقتصاد الإسلامي. وكان الغرب الأوربي يلح باستمرار في طلب بضائع معينة من مدن العالم الإسلامي أهمها: الذهب والفراء والقصدير والأخشاب والعبيد، تلك السلع التي كانت المدن الأوربية تعانى من أجل الحصول عليها[٤٥].

كان البحر المتوسط مركزًا لأهم الطرق التجارية بين العالمين الأوربي والإسلامي، والبضائع تغدو وتروح فيه دون انقطاع. والمعروف أن غرب أوربا لم يحظ سوى بالقليل من البضائع ليبادلها مع منتجات العالم الإسلامي. ولذلك اعتمد الأوربيون كليًا على السلع الإسلامية، ودفعوا مقابل هذه السلع كميات كبيرة من الذهب الذي كانوا يحصلون عليه بشق الأنفس من التجار المسلمين أيضًا[٤٦].

وغنى عن البيان أن البحر المتوسط حتى القرن العاشر الميلادي كان معظمه خاضعًا للقوى الإسلامية المتناثرة حوله. وبذلك احتكر التجار المسلمون النشاط الإقتصادى في هذا البحر، ولم يتركوا إلا حيزًا محدودًا للبيزنطيين في القسم الشرقي منه، ما نعنيه أن التجار المسلمين انفردوا بحمل السلع وبيعها إلى الغرب الأوربي، وقبضوا في مقابل ذلك الكثير من الذهب الذي كانوا هم أنفسهم يصدرونه لأوربا، وقد استمر هذا الحال حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٤٧].

وكان من أهم نتائج هذا التطور الاقتصادي أن ازدهرت مدن إسلامية على سواحل البحر المتوسط من أبرزها مدينة المهدية التي بُنيت على موقع استراتيجي مهم بات ملتقى للطرق التجارية في القسم الغربي من العالم الإسلامي. وأتاح موقع المدينة لأهلها أن يشاركوا

---

(٤٤) *Chronica M. Casinensis*, vol. 3, 71, p. 453.

(٤٥) Louis de Mas Latrie, *Relations et commerce de l`Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen âge*, Paris, 1886, pp. 22- 24.

(٤٦) Lombard (M.), *Les métaux dans l'ancien monde (5-11s.)*, p.195 et suivants.

(٤٧) ج. شاخت، ك. بوزورث، تراث الإسلام، ص ٢٥١– ٢٥٥؛ أ. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠– ١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٥٢– ٢٥٣.

في الحركة التجارية الهائلة في البحر المتوسط، كما جعل منها ملتقى للقوافل التجارية القادمة من أقصى الجنوب في أفريقيا، والتي كانت تعبر الصحراء الكبرى، وتلقى متاعها وسلعها – ومن أهمها الذهب والحديد– في أسواق المهدية[٤٨].

صار لزامًا على مدن غرب أوربا أن تتخلص من احتكار المسلمين للنشاط التجاري في البحر المتوسط، فسعت إلى تنشيط معاملاتها التجارية مع القسطنطينية، ونجحت بمعونة التجار البيزنطيين في الحصول على سلع مهمة مثل: الحرير، والعاج، والبهارات، ومواد الصباغة[٤٩]، وذلك بعد أن استعاد البيزنطيون في القرن العاشر الميلادي: جنوبي إيطاليا[٥٠]، وجزيرة كريت[٥١].

وكان من نتيجة ذلك أن برزت عدة مدن تجارية على سواحل إيطاليا، اعتمدت على النشاط البحري بصفة رئيسة، من هذه المدن أمالفى ونابلي وجايتا على الساحل الغربي، ومدينة البندقية على الساحل الشرقي، وإن ركزت هذه الأخيرة على البحر الأدرياتى حيث احتكرت النشاط التجاري والسياسي فيه. كما ازدهرت مدن أخرى في الشمال الإيطالي، من أهمها "بيزا"[٥٢] و"جنوه"[٥٣]، فضلاً عن مدينة "بافيا" التي أصبحت مركزًا مهمًا لتسويق البضائع في شمال إيطاليا.

---

(٤٨) voir Les Cartes, dans; Lombard, *Les métaux dans L'ancien monde.*

(٤٩) هنري بيرين، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٢٣– ٣٣.

(٥٠) voir les détails dans: Gay (J.), *L' Italie méridionale et l' empire byzantine (867- 1071)*, 2 vols. New York, 1904; Martin (J. M.) & Noyé (G.), "Les campagnes de l' Italie méridionale byzantine (X- XI) siècles", *M. E. F. R.* 101/2 (Paris, 1989), pp. 559- 596.

(٥١) راجع؛ اسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٣٧ وما بعدها.

(٥٢) والمعروف أن نظام الحكم في المدن الإيطالية قد تطور بصورة طيبة حتى القرن الحادي عشر الميلادي بما وفر لهذه المدن مكانة سياسية وتجارية كبيرة في حوض البحر المتوسط. خضعت مدينة بيزا سياسيًا إلى إقليم توسكانيا حتى سنة ١٠٦٧م. وقد حمل الحاكم في مدينة بيزا منذ سنة ١٠٧٧م لقب فيسكونت Viscount (أي أقل من كونت) الذي كان يُعين بقرار من حاكم توسكانيا، ولكن تدريجيًا أصبح هناك أسرة توارثت هذا المنصب في بيزا. وكان الذي قاد البيزيين في الحملة على المهدية أحد أفراد هذه الأسرة وهو الفيسكونت هوجو Ugo. وسارت المدينة في طريق الجمهورية منذ سنة ١٠٨١م عندما اختار أهلها مجموعة من القناصل ليشاركون الفيسكونت في شئون الحكم. Bragadin (M.), *Hist. des républiques maritimes Italiennes: Venise- Amalfi- Pise- Gênes*, Paris, 1955, pp. 29- 30.

(٥٣) أما جنوه فأشرف عليها مجموعة من الأساقفة كانت ترسلهم كنيسة روما. وكان واحدهم يحمل أيضًا لقب فيسكونت مثل الحاكم في مدينة بيزا. ولم يلبث أن تقاسم الارستقراطيون النفوذ في المدينة مع حكامها من الأساقفة، حتى ثار العامة ضدهم جميعًا وطالبوا بتشكيل مجلس من القناصل على غرار الذي تم عمله في بيزا،

أصبح للمدن الإيطالية أساطيل، فلم تعد بحاجة للحماية البيزنطية، وبسطت "البندقية" نفوذها في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط، واحتكرت النشاط التجاري فيه، فانصرف تُجار كل من "بيزا" و"جنوه" و"أمالفي" إلي القسم الغربي، ولكنهم اصطدموا بالنفوذ السياسي والتجاري لمدينة المهدية، ورأوا فيها عائقًا أمام نشاطهم التجاري، ولذلك سعوا إلى تدميرها(٥٤).

ما إن امتلكتا بيزا وجنوه أسطولين قويين، حتى دخلتا في حروب مع المسلمين على سواحل البحر المتوسط (٥٥)، وقد تشجعتا بتغير ميزان القوى في هذا البحر لصالح أوربا، فأصبح لديهما الرغبة في القضاء على كل وجود إسلامي قد يُعيق نشاطهما التجاري(٥٦)، ولذلك شنت أساطيل المدينتين هجومًا مشتركًا في سنتي ١٠١٦/ ١٠١٧م على جزيرة سردينيا لطرد المسلمين منها(٥٧).

وخص أهالي المدينتين بكراهيتهم مسلمي شمال أفريقيا لا سيما حكام مدينة المهدية الذين سبق وأن أرسلوا سفنهم للإغارة على مدينة جنوة سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م(٥٨)، وعلى مدينة بيزا في سنتي ١٠٠٤م و١٠١١م(٥٩)، فهاجمت السفن البيزية – ردًا على ذلك– مدينة بونه (هي عنابه في الجزائر حاليًا) في سنة ١٠٣٤م، وهزمت المعز الزيرى والد الأمير تميم(٦٠).

وكان من سخط البيزيين على تميم الزيري حاكم مدينة المهدية الذي أرسل سفنه إلى جزيرة صقلية في محاولة لصد الغزو النورماني لها، فعرضوا على النورمان المساعدة، وهاجموا سنة ١٠٦٣م مدينة بالرمو في صقلية، واستولوا على غنائم كبيرة من المسلمين(٦١).

وقد تحقق ذلك أخيرًا في سنة ١٠٩٨م. Bent (J.), *Genoa: How the Republic Rose and Fell*, 1881, pp. 49- 50.

(٥٤) Dupont (A.), *Les relations commerciales entre les cités maritimes de Languedoc et les cités Méditerranéennes*, France, 1942, pp. 17, 51.

(٥٥) يذكر هنري بيرين أن بيزا وجنوه كانتا متحمستين للدخول في حروب دينية مع العالم الإسلامي، انظر: Pirenne (H.), *Les villes du moyen Age*, Bruxelles, 1927, pp. 78, 81.

(٥٦) أرشيبالد لويس، القوى التجارية، ص ٣٤٩– ٣٥٠.

(٥٧) Bernardo Marangone, *Annales Pisani*, M. G. H. SS, vol. 19, p. 238.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل، ٧/ ١١٥؛ ابن عذارى، البيان، ١/ ٢٠٩؛ ابن خلدون، تاريخه، ٤/ ٢٦٥؛ وللمزيد راجع: ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة: احمد رضا، القاهرة، ١٩٨٥، ج١، ص ١٣٥. أشار ابن الأثير إلى أن هجوم بيزا وجنوه على المهدية جاء ردا على مهاجمة تميم قبلا للمدينتين، الكامل، ٨/ ٤٥٥.

(٥٩) Jehel, *L` Italie et le Maghreb au moyen âge*, p. 40.

(٦٠) Marangone, *Annales Pisani*, M. G. H. SS, vol. 19, p. 238.

(٦١) Malaterra, *Deed*, II, pp. 111- 112.

ويظُن "شاخت" أن ما أوغل صدور البيزيين والجنويه على تميم الزيري أنه أساء معاملة تجارهم، فوجدوا الفرصة في دعوة البابا فيكتور إلى خروج حملة ضد هذا الحاكم لكي ينتقموا لأنفسهم منه[٦٢]، ويؤكد "هايد" أنهم اغتنموا الفرصة نفسها للقضاء على النفوذ التجاري والعسكري الذي حظيت به مدينة المهدية في البحر المتوسط[٦٣]، كما يذكر "لُمبار" أن البيزيين والجنويه طمعوا في امتلاك مصادر الذهب في أفريقيا بعد القضاء على مدينة المهدية[٦٤].

وشاركت مدينة أمالفى بيزا وجنوه أحقادهم، فأرسلت أحد رجالها وهو بانتاليونى Pantaleone الذي كان ينتمي إلى عائله تجارية من أهم عائلات أمالفى[٦٥]. وقد ظهر اسم هذا الرجل ضمن الحديث عن الفرقة الرومانية التي انضمت إلى الحملة الإيطالية، وربما جاء تعيينه من قبل البابا فيكتور قائدًا لفرقة روما، فضلاً عن قيادته لرجال مدينته أمالفى[٦٦].

بقى أن نشير إلى مشاركة الكونتيسة ماتيلدا حاكمة توسكانيا في أحداث الحملة، فقد عُرف عن هذه المرأة دعمها المتواصل للبابوية منذ عهد البابا جريجورى السابع، كما أنها كانت متعصبة ضد العالم الإسلامي، فأيدت مشروع الحملة التي كان البابا جريجورى قد خطط لإنفاذها ضد الأتراك السلاجقة سنة ١٠٧٤م، واتخذت جانب هذا البابا مؤيدة له بمالها ورجالها في كل دعاويه المتعصبة التي كانت ترمى إلى نصرة قضية المسيح بالقوة المسلحة[٦٧]. ولذلك لم يكن غريبًا أن تؤيد ماتيلدا دعوة البابا فيكتور لخروج حملة عسكرية ضد المهدية، فأرسلت إليه فرقة من رجالها، كما استعملت نفوذها في مدينة بيزا لتسهيل خروج أسطولاً وجيشًا كبيرين، وحرصت على اختيار أحد صنائعها وهو الأسقف بندكت ليكون مندوب البابا في هذه الحملة.

مما سبق شرحه يتضح أن الذين شاركوا في الحملة قد اختلفت دوافعهم بين دينية واقتصادية وسياسية، ولكن اتفقوا جميعًا على هدف واحد وهو تدمير مدينة المهدية، غير أن النورمان في صقلية كان لهم رأى معارض.

---

(٦٢) ج. شاخت، تراث الإسلام، ج ١، ص ٢٦٦- ٢٦٧.

(٦٣) هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٣٥- ١٣٦؛ أيضا انظر: Dupont, *Les relations commerciales*, p. 51.

(٦٤) Lombard, *Les métaux dans L'ancien monde*, pp. 232- 234 et suivants.

(٦٥) See the details in: Citarella (A.), "The Relations of Amalfi with the Arab world before the Crusades", *Sp* 42(1967), pp. 299- 312.

(٦٦) انظر التفاصيل في، هايد، تاريخ التجارة، ج ١، ص ١٣٦- ١٣٧.

(٦٧) Erdmann, *The Origin of the Idea of Crusade*, trans. M. W. Baldwin & W. Goffart, U. S. A., 1977, pp. 242- 247.

موقف نورمان صقلية من الحملة الإيطالية:

ظهر الفرسان النورمان في جنوب إيطاليا في السنوات الأولى من القرن الحادي عشر الميلادي، وذاعت شهرتهم كمحاربين أفذاذ، كما عُرف عنهم الذكاء والطموح وحب المغامرة، ولذلك سرعان ما فرضوا سيطرتهم على جنوب إيطاليا، وعقدوا معاهدة مع البابوية سنة ١٠٥٩م، صاروا بمقتضاها أتباعًا إقطاعيين لها. وكانت أبرز أسرة نورمانية حكمت في جنوب إيطاليا هي أسرة هوتفيل التي قُيض إليها مشروع غزو صقلية(٦٨).

انتزع النورمان صقلية من أيدي المسلمين بعد حروب دامت سنوات طويلة (٤٥١-٤٨٤هـ /١٠٦٠- ١٠٩١م). واعتبرت البابوية مشروع غزو النورمان لصقلية بمثابة حربًا مقدسة، وصوره المؤرخ النورماني المعاصر "مالاتيرا" على أنه عمل مقدس، يتقرب به النورمان إلى الرب؛ لأنهم خلصوا صقلية من أيدي المسلمين، وأعادوها إلى حوزة المسيحية(٦٩). وذكر "باركر" و"إردمان" أن هذه الحرب لا تقل في مكانتها والنتائج التي ترتبت عليها عن الحروب الصليبية التي جاءت بعد ذلك(٧٠).

سبقت الإشارة إلى أن تميم الزيري أمير المهدية حاول إنقاذ صقلية من غزو النورمان، ولكن محاولاته انتهت إلى الفشل، واضطر في سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م إلى أن يعقد معاهدة سلام مع الكونت النورمانى روجر الأول حاكم صقلية (١٠٦٠- ١١٠١م): تعهد فيها بعدم مهاجمة الأملاك النورمانية مجددًا، والتزم بفتح طريق التجارة بين موانيه والموانئ النورمانية(٧١)، حيث كان روجر يبيعه الحبوب كما نفهم من رواية لابن الأثير(٧٢).

ظل الكونت روجر وفيًا لمعاهدته مع حاكم المهدية، ورفض المشاركة في الحملة التي حشدتها البابوية ضد هذا الحاكم سنة ١٠٨٧م(٧٣). والحقيقة أن روجر كانت لديه أسبابه التي دفعته لاتخاذ هذا الموقف: فهو كان يخشى من مغبة مثل هذه المغامرة إذا فشلت، إذ ربما يعرضه هذا لانتقام مسلمي إفريقية، فيهاجمون صقلية مجددا.

---

(٦٨) لمزيد من التفاصيل، انظر: خالد عبد البديع، البابوية والنورمان، ص ٤٥- ٤٧، ٤٩- ٧٥.

(٦٩) Malaterra, *Deeds*, II, pp. 85- 86.

(٧٠) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٨؛ Erdmann, *The Origin*, pp. 133- 136.

(٧١) Malaterra, *Deeds*, III, pp. 147- 148.

(٧٢) ابن الأثير، الكامل، ٩/ ١٣.

(٧٣) Cahen (C.), *L'Orient et l'Occident au temps des croisades*, Paris , p. 36.

وقد لاحظ ابن الأثير خطورة موقف روجر فذكر على لسانه[٧٤]: " إذا وصلوا – الفرنجة– إليّ، أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من عندي أيضًا، فإن فتحوا البلاد كانت لهم، وصارت المئونة لهم من صقلية، وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم، ويقول "تميم" غدرت بي، ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا، وبلاد إفريقية باقية لنا، متى وجدنا قوة أخذناها".

وهناك عوامل أخرى تبرر مسلك نورمان صقلية الرافض للمشاركة في حملة المهدية، وهى أنهم– منذ بداية دخولهم صقلية– تسامحوا مع المسلمين، فكفلوا لهم الأمان، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم في حرية، ومما رواه المؤرخ المعاصر مالاتيرا[٧٥] أن الكونت روجر وشقيقه روبرت جويسكارد عندما دخلا "بالرمو" حاضرة صقلية سنة ١٠٧١م، ضمنا لسكانها من المسلمين كل حقوقهم القديمة، وتعهدا لهم بألا يُمارس ضدهم أي عدوان، من شأنه تغيير شريعتهم، وحلفا لهم على ذلك بقسم يناسب هوى أهل بالرمو، أي قسم إسلامي.

وقد ذكر مؤرخ أخر كان معاصرًا للفتح النورمانى جزيرة صقلية أن روبرت جويسكارد، لم يجبر سكان مدينة بالرمو من المسلمين على تغيير عقيدتهم، واكتفى بتحويل مسجد المدينة إلى كنيسة؛ إذ كانت هذه صورته الأولى قبل دخول المسلمين صقلية[٧٦].

إذن كانت سياسة النورمان تجاه المسلمين منذ البداية معتدلة، وهم لم يفعلوا ذلك مع مسلمي بالرمو فقط، ولكن في كل أنحاء صقلية[٧٧]، ويحكي الجغرافي الشهير "الإدريسي" عن الكونت روجر: "لما صار إليه أمر الجزيرة، نشر سيرة العدل في أهلها، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذراريهم"[٧٨].

---

(٧٤) ومما يشار إليه أن ابن الأثير ذكر في أحداث سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) أن قادة الغرب المسيحي (الفرنجة) طلبوا من روجر مساعدتهم لمهاجمة إفريقية من خلال صقلية، غير أن الأخير رفض، ونصحهم بالذهاب إلى الشرق، انظر: الكامل، ٩/ ١٣؛ والحقيقة أن عدم وجود مثل هذه الإشارة في المصادر الغربية يجعلنا نتشكك كثيرًا فيها، وربما قصد المؤرخ أحداث سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٧م)، حيث كانت الحملة ضد المهدية، وخاصةً أنه يوجد الكثير من الخلط عند ابن الأثير، فقد أشار إلى وفاة الكونت روجر سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م). انظر: الكامل، ٨/ ٤٧٤؛ بينما كانت وفاته في سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م)، وقد أثبتها ابن خلدون ؛ انظر: تاريخه، ٤/ ٢٦٩.

(٧٥) Malaterra, *Deeds*, II, p. 125.

(٧٦) Guillaume d` Apuile, *La geste de Robert Guiscard*, Trad. Marguerette Mathieu, Palermo, 1961, liv. III, pp. 181- 183.

(٧٧) Aubé (P.), *Les empires normands d'orient*, Perrin, 2006, p. 96; Metcalf (A), *Muslims and Christians in Norman Sicily*, U. K, 2003, p. 28.

(٧٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، مجموعة أماري في تاريخ صقلية، فرانكفورت، ١٩٩٩م، مجلد ١٥٣، ص ٢٦.

والحقيقة أن النورمان استفادوا من الكثافة العددية للمسلمين، فاتخذوا منهم فرقاً عسكرية خلال حروبهم في إيطاليا، ونجد المصادر الغربية المعاصرة لهذه الفترة تذكر حوادث عدة بين سنتي (١٠٧٦- ١٠٩٨م) اصطحب فيها الحكام النورمان جنودًا من مسلمي صقلية للقتال في جنوب إيطاليا، حتى بلغ عدد هؤلاء الجنود ألوفا في بعض الحالات(٧٩).

ويعلق أحد المؤرخين المحدثين على ذلك بقوله: "أن الكونت روجر كان يستميل المسلمين جاعلاً منهم رعايا مخلصين له، وأنصاراً يستعين بهم في مواجهة رفقائه غير المريحين- أي الأشراف النورمان أصحاب الإقطاعيات- إذا حاولوا مزاحمته والخروج عن طاعته(٨٠)". ومن ناحية ثانية تعمد هذا الحاكم وخلفاؤه من بعده إبقاء المسلمين على ديانتهم، وتجنيدهم حتى يكونوا أكثر قسوة في القتال ضد المسيحيين في إيطاليا(٨١).

وبصفة عامة أظهر موقف روجر من هذه الحملة، مدى حرصه وحذره من المشاركة في الحروب ضد العالم الإسلامي، فموقفه في جزيرة صقلية -التي كابد المشقة في فتحها- كان ما زال بحاجة إلى الاستقرار، فضلاً عن هذا كان المسلمون في صقلية يمثلون عددًا كبيرًا من سكانها، ومن ثم كان روجر لا يأمن تهديد سيادته من وقت إلى آخر، ولذلك لم يسمح لرجاله بالخروج في الحملة الصليبية الأولى التي جاءت بعد هذه الأحداث بسنوات قلائل(٨٢).

هل تعد الحملة الأوربية علي المهدية صليبية؟

دعت البابوية لخروج هذه الحملة، ولدينا رواية بطرس الشماس صاحب حوليات دير كاسينو التي ذكر فيها: "أن البابا فيكتور كان مثقلا بهموم المسيحيين الذين يقعوا من يوم إلى أخر أسري في أيدي تميم، وبات البابا مشغولا بفكرة كيف ينتقم من هذا الأمير المسلم، وكيف يدمر ولايته "إفريقية"، فاستشار الأساقفة والكرادلة، وخرج بدعوة وجهها إلي كل شعوب إيطاليا، حثهم علي حشد جيش وتسييره ببركة الرب وسان بطرس إلي إفريقية، ووعد البابا

---

(٧٩) انظر تفاصيل ذلك في صفحات المصادر التالية:

Amatus of Mt. Cassino, *The Hist. of the Normans*, p. 194; L. Protospatarius, *Chronicon*, P. L., t. 155, p.142; Malaterra, *Deeds*, IV, pp. 194, 200.

(٨٠) مارتينو ماريو، المسلمون في صقلية، بيروت، ١٩٦٨، ص١٩.

(٨١) Curtis (E), *Roger II of Sicily*, New York, 1912, p. 45;

وتضيف هيلين فيروزوفيسكي Wieruszowski أن روجر الثاني أبقى دائمًا على استخدام فرق إسلامية في جيشه لإرهاب أتباعه في جنوب إيطاليا الذين كانوا دائمي الثورة عليه؛ انظر: "Roger II of Sicily, rex-tyrannous, in 12th century Political thought", *Sp* 38/I (Jan. 1963), pp. 65- 67.

(٨٢) Loud (G), "Norman Italy and the Holy Land", in: *The Horns of Hattin: proceedings of the crusades and the Latin east, Jerusalem and Haifa, 2- 6 July, 1987*, ed. Benjamin Z- Kedar, Jerusalem, 1992, pp. 49 – 50.

بأن يمنح هذا الجيش راية الرسول بطرس، وبأن يحصُل أفراده علي عفو من الرب وغفران لمحو ذنوبهم"[٨٣].

شجعت دعوة البابوية بعض المؤرخين المحدثين على القول أن هذا المشروع لم يختلف فى كثير عن الحروب الصليبية التالية، فذكر المؤرخ الفرنسي لويه ده ما لاتري أن الحملة كانت جزء من الحرب المقدسة التي أعلنها الغرب الأوربي على العالم الإسلامي[٨٤]، ووصف إرنست مارسيه هذه الحملة صراحة بأنها صليبية Croisade، وأشار إلى أنها جاءت ردًا على مهاجمة أمير المهدية للسفن المسيحية في البحر المتوسط، واقتياده التجار المسيحيين في الأسر[٨٥].

وجاء المؤرخ الألماني "كارل إردمان" بآراء مقاربة لذلك، واعتمد على اعتبارات منها: أن البابا شخصيًا هو من بشر بالحملة ودعى إلى انضمام المسيحيين اليها، كما أنه منح المشاركين عشية التبشير بالحملة، راية القديس بطرس، وأخيرًا ضمن لهم الغفران الكنسي Indulgence[٨٦]. وهذه الإجراءات مارسها البابوات فيما بعد فى الحملات الصليبية المعروفة نحو الشرق حتى أصبحت أمورًا واجبًا حدوثها لإضفاء الشرعية على الحملة الصليبية قبل خروجها.

وأشار المؤرخ الإنجليزى "كودري" إلى أن أركان الحركة الصليبية قد اكتملت فى الحملة على المهدية، حتى أن البيزيون رفعوا شعار الحج الذي اعتاد الصليبيون استخدامه فيما بعد لإضفاء الشرعية على حملاتهم، ولذلك يؤكد "كودرى" على أن هذه الحملة كانت فى كل جوانبها صليبية[٨٧]، وهذا ما شجع المؤرخ الفرنسي "ج. جيل" على أن يعتبرها مقدمة للصليبيات[٨٨].

كما ذهب الفرنسي "جان فلورى" – وهو المتخصص فى الحروب الصليبية– فى نفس الاتجاه، فذكر أن هذه الحملة كانت ضد أعداء المسيح. ولم يفته أن يشير إلى أن البابا أرسل مندوبًا عنه مع الحملة هو الأسقف بندكت ده مودينا. ولم يجد هذا المؤرخ فرقًا كبيرًا بين تلك

---

(٨٣) *Chronica M. Casinensis*, vol. 3, 71, p. 453; see also: *Vita Victoris Papae III*, S. C. N. A. C, ed. Mansi, vol. 20, pp. 629- 630.

(٨٤) Louis de Mas Latrie, *Relations et commerce*, p. 54.

(٨٥) Marcier, *Hist. de l` Afrique septentrionale*, t. 2, p. 42.

(٨٦) Erdmann, *The Origin of Idea of the Crusade*, pp. 196, 293.

(٨٧) Cowdrey, "The Mahdia Campaign", p. 22.

(٨٨) Jehel, *L` Italie et le Maghreb au moyen Age*, p. 41.

الحملة وغيرها من الحملات الصليبية التى جاءت لاحقة، فكل هذه الحملات خرجت بدعم من البابوية إلى حرب المسلمين وراء البحر، فيما عدا أن حملة المهدية لم تخرج بهدف الحج إلى الأراضى المقدسة كما كان شعار الصليبين الذين رحلوا إلى الشرق بعد سنة ١٠٩٥م[٨٩].

ويؤيد المؤرخ الإنجليزي كريستوفر تيرمان الرأى نفسه، ويضيف قوله بأن الطقوس التى سبقت خروج الجيوش الصليبية إلى الشرق سنة ١٠٩٦م وهى: عقد مؤتمر كنسي، وتبشير البابوية للحملة، ومنح المشاركين راية القديس بطرس، والمباركة البابوية، ووعد بالغفران من الذنوب، كل هذه الطقوس قد تم رؤيتها وتطبيقها في الحملة الإيطالية على مدينة المهدية. ولكن تيرمان كان حذرًا من أن يُلقي على هذه الحملة صفة "الصليبية"، واكتفى بأن ينعتها باسم "الحرب المقدسة"، وذلك لأن الراية التى حملها المهاجمون لم يرسم عليها صليبًا، مثل ما جرت العادة فى الجيوش التى خرجت بعد مؤتمر كليرمون سنة ١٠٩٥م[٩٠].

مهما يكن من أمر فقد أيدت البابوية خروج هذه الحملة، وتحمست لها، وكان هذا بلا شك بدافع دينى، ويرى الباحث أن هذه الحملة كانت بلا جدال مقدمة للحروب الصليبية، أو خطوة أولى على طريقها؛ وذلك لأنها لم تكن حرب استرداد لأملاك كانت فى الأصل مسيحية مثل الحروب التى خاضها الأوربيون ضد المسلمين فى الأندلس وفي صقلية، وإنما كان هجومًا مسيحيًا على مدينة إسلامية، وهذا يشبه ما حدث فى الحروب الصليبية لاحقًا.

أحداث الحملة ونتائجها:

اختلف المؤرخون المسلمون حول تحديد تاريخ حاسم للحملة الإيطالية، فجعله بعضهم سنة ٤٨٠ه وجعله البعض الأخر سنة ٤٨١ه[٩١]، كما اختلفت أيضا المصادر والحوليات الأوربية إذ لم تحدد كارمن البيزية تاريخًا للحملة رغم أنها مصدر رئيس لها Carmen in Victoriam Pisanorum[٩٢] ، في نفس الوقت أشار مارانجوني صاحب حوليات مدينة بيزا

---

(٨٩) Flori, *la guerre sainte*, pp. 296- 297.

(٩٠) Tyerman (Ch.), *The Invention of the Crusades*, Hong Kong, 1998, p. 16.

(٩١) ذكر ابن الأثير أن الحملة وقعت سنة ٤٨١ هـ ، الكامل، ٨/ ٤٥٥– ٤٥٦؛ واتفق معه في ذلك النويرى، انظر: نهاية الأرب، بيروت، ٢٠٠٤، ج. ٢٤، ص١٢٧؛ وذكر التجانى أنها كانت سنة ٤٨٠ هـ ، انظر: رحلته، ليبيا– تونس، ١٩٨١، ص ٣٣١؛ وأخذ برأيه كل من ابن عذارى، البيان، ١/ ٣٠١؛ وابن خلدون، تاريخه، ٦/ ٢١٢.

(٩٢) كارمن (أي أنشودة) هي نص شعري كتب باللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي بيد أحد أبناء مدينة بيزا، وهذا النص يتعلق بالحملة على المهدية، ويشرح ما جرى فيها، وتوجد النسخة الأصلية في المكتبة الملكية ببروكسيل، ألبرت الأول، برقم MS. 3897- 3919, fos. 63r- 65v, 12th cent.، وقام بعض المختصين بنسخ ونشر القصيدة، F. de Reiffenberg, *Bulletin de l' Académie de Bruxelles*, Vol. 10, t. I,

إلي وقوع الحملة سنة ١٠٨٨م[٩٣]، وذكر كافارو صاحب حوليات جنوه –عرضًا– أنها كانت سنة ١٠٨٨م رغم أنه أشار إلي وقوعها زمن البابا فيكتور الثالث[٩٤]، وذلك يخالف السياق التاريخي لأن هذا البابا توفي في ١٦ سبتمبر ١٠٨٧م، أما حوليات بينفنتو فقد شطحت بعيدا إذ أشارت إلي وقوع الحملة سنة ١٠٨٩م[٩٥]، في حين ذكر "بطرس الشماس" صاحب حوليات دير كاسينو– وقد كان معاصرًا للأحداث– أنها جرت سنة ١٠٨٧م وحدد لها شهر أغسطس[٩٦]، وأيد قوله ما ورد من أخبار في سيرة البابا فيكتور[٩٧]، كما أيده المؤرخ برنولد[٩٨]، وأيدته حوليات دير كافا[٩٩]، وحوليات دير سيكانو، وإن حددت لوقوع الحملة شهر أكتوبر[١٠٠]، وقد جزم معظم المؤرخين المحدثين بوقوع الحملة زمن البابا فيكتور الثالث، وحددوا لها السادس من شهر أغسطس، ويأخذ الباحث بهذا الرأي، وبذلك تكون أحداثها قد وقعت سنة ٤٨١ه/ ١٠٨٧م.

ومهما يكن من أمر فقد رسى أمام شواطئ المهدية أسطول أوربي، حوي ثلاثمائة سفينة، عليها ثلاثين ألف مقاتل[١٠١]. وكان على قيادة الحملة الفيسكونت "هوجو" حاكم مدينة بيزا، الذى حمل لقبين آخرين هما: دوق Dux ورئيس Princeps [١٠٢]، كما صاحبه المندوب البابوي بندكت ده مودينا فضلا عن اثنين من قناصل جنوة. وكان القائد يحمل شارة

1843, 524- 545; *Annuaire de la Bib. royale de Belgique*, Vol. 5, 1844, 112- 135; E. du Méril, *Poésies populaires du moyen âge*, Paris, 1847, pp. 239- 251.

(٩٣) Marangone, *Annales Pisani*, M. G. H. SS, vol. 19, p. 239.

(٩٤) بدأ كافارو حولياته بالقرن الثاني عشر م فأشار من بعيد إلي حملة المهدية، ولم يوضح دور جنوه فيها، انظر: Caffaro, *Annali Genovesi de`suoi Contiuatori*, Genavo, 1890, v.1, p. 13, not. 4.

(٩٥) *Annales Benventani*, M. G. H. SS, vol. 3, p. 182.

(٩٦) *Chronica M. Casinensis*, vol. 3, 71, p. 453.

(٩٧) *Vita Victoris Papae III*, S. C. N. A. C, ed. Mansi, vol. 20, pp. 629- 630.

(٩٨) Bernold, *Chronicon*, M. G. H. SS, vol. 5, p. 447.

(٩٩) *Annales Cavenses*, M. G. H. SS, vol. 3, p. 190.

(١٠٠) *Annales Ceccanenses*, M. G. H. SS, vol. 19, p. 281.

(١٠١) ذكر ابن الأثير أن البيزيين والجنويه هم من قاموا بالحملة، وأن عدتهم كانت أربعمائة مركب، الكامل، ٨/ ٤٥٥– ٤٥٦؛ وأورد الإشارة نفسها النويري، وإن أسمى المهاجمين بالروم، نهاية الأرب، ٢٤/ ١٢٧؛ في حين أجمعت بقية المصادر – وهي كما يتضح مغاربية– على أن عدة المهاجمين كانت ثلاثمائة سفينة حملت ثلاثين ألف مقاتل، انظر: التجاني، رحلته، ص ٣٣١؛ ابن عذارى – ذكر أن الروم هم من قام بالحملة، البيان، ١/ ٣٠١؛ ابن خلدون – وإن اختص الجنويه بالقيام بالحملة، تاريخه، ٦/ ٢١٢؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص ٨٥، والباحث يأخذ – فيما يخص العدد– برأي المؤرخين المغاربيين لأنهم أقرب إلى الأحداث مكانًا.

(١٠٢) انظر نسخة كارمن، ملاحق البحث، مقطع ٤٥.

الحجاج Scarsellae التابعة لروما، والتى ربما زوده بها المندوب البابوي لإضفاء المسحة الدينية على الحملة[١٠٣].

وعندما بلغ المهاجمون سواحل المهدية، وقف المندوب البابوى "بندكت" قبالة مدينة "زويلة" وخطب في جموع المسيحيين، فشجعهم على القتال، وذكر أن حربهم هذه هي معركة يخوضها المسيح ضد أعدائه، وأن الفوز فيها لن يكون أقل من تغلب النبى "داود" على الطاغية "جالوت"، أو انتصار اليهود على فرعون وخروجهم من مصر [١٠٤].

ويتضح من ذلك أن القتال أخذ مسحة دينية، وكان قائد الحملة حريصًا على إظهار أن جنوده خرجوا من أجل تحرير المسيحيين الذين أسرهم " تميم الزيري". وقد أيد بعض المؤرخين –ممن غلب عليهم التأثر الديني– فكرة أن هدف الحملة الحقيقى كان ردع تميم الزيرى عن مهاجمة المسيحيين، ثم تحرير الأسري "التعساء" الذين كانوا فى يده[١٠٥].

على أية حال كان الأمير تميم غائبًا عن مدينته عندما وصلته رسائل أفادت أن السفن الأوربية التي خربت جزيرة قوصرة[١٠٦]– في طريقها إلى المهدية، فلحق تميم بقلعة المدينة وحاول أن يمنع الغزاة من نزول البر أمام مدينة زويلة المجاورة للمهدية، وأرسل مقدم أسطوله عثمان بن سعيد ولكنه أخفق، ولم ينجح تميم فى انقاذ مدينتيه من مصيريهما التعس: "فجاءت الروم وأرسوا وطلعوا إلى البر، ونهبوا وخربوا وأحرقوا، ودخلوا زويلة، ونهبوها"[١٠٧]، ولم يجد تميم بدًا من طلب الصلح، فعرض أن يدفع مائة ألف قطعة ذهبية[١٠٨]، وأن يطلق سراح الأسري المسيحيين لديه، كما تعهد بعدم مهاجمة أراض أو قوافل

---

(١٠٣) انظر كارمن، مقطع ٣٤؛ أصبح شائعًا فيما بعد أن يحمل الصليبيون راية الحج إلى الأراضي المقدسة، وذلك لإبراز الجانب الديني في حملاتهم، انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، عدد ١٤٩، ص ١٦ وما يليها.

(١٠٤) كارمن، مقاطع ٢٦– ٢٨.

(١٠٥) Marcier, *Hist. de l` Afrique*, t. 2, p. 42; Flori, *la guerre sainte*, p. 297.
أيضا انظر: هنري بيرين، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٣٣– ٣٤؛ جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص ٢٥٣.

(١٠٦) ابن الأثير، الكامل ٨/ ٤٥٥، وجزيرة قوصرة تقع فى البحر المتوسط بين صقلية والمهدية، وكانت خاضعة للمسلمين منذ عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان (٤١– ٦٠ هـ/ ٦٦٠– ٦٨٠م)، انظر: ياقوت، ج٤/ ٢٠٠– ٢٠١، وقد أطلقت كارمن على هذه الجزيرة اسم Pantelleria، انظر: الأبيات، ١٥– ١٨.

(١٠٧) ابن الاثير، الكامل، ٨/ ٤٥٥.

(١٠٨) ابن خلدون، تاريخه، ٦/ ٢١٢؛ التجانى، رحلته، ص ٣٣٢؛ وقد بالغ التجانى حتمًا حين ذكر أن تميم تركهم يرحلون بما حصلوا عليه من مال وأسري، ولا يميل الباحث إلى هذا القول، فلا يصح لأمير المهدية بعد

أو سفن مسيحية، والتزم باستقبال التجار الإيطاليين في موانيه دون أن يلزمهم بدفع ضريبة، فوافق الغزاة وانسحبوا[١٠٩].

أضافت "كارمن" أن الأمير "تميم" قبل بأن يدفع جزية سنوية إلى كنيسة روما، معترفًا بأن كل أملاكه قد أصبحت من الآن فصاعدًا إقطاعًا تابعًا للبابوية[١١٠]. وربما وافق تميم على أن يدفع جزية سنوية لروما، ولكن من المستبعد أن يعترف بتبعيته للبابا، فلا يجب أن ننسى أنه قبل كل شيئ كان حاكمًا مسلمًا، كما أن شمال أفريقيا كله كان لا يزال خاضعًا للحكام المسلمين. ثم أن السفن الأوربية لم تكن قوية كافية لأن تفرض مثل هذه الشروط القاسية، ويؤكد على ذلك المؤرخ المعاصر مالاتيرا بقوله " أن القوات المغيرة كانت عاجزة عن إحكام سيطرتها على المهدية، لذلك أرسلت إلى الكونت روجر حاكم صقلية تعرض عليه أن يتسلمها، ولكن روجر لم يقبل، رغم أن رفضه هذا يخالف ما يمليه عليه الواجب، وهو – حسبما يقصد المؤرخ– قتال المسلمين"[١١١].

حقق الإيطاليون انتصارًا سهلاً، فنهبوا مدينة المهدية وخربوا وأحرقوا زويلة، وحملوا أموالاً وغنائم وفيرة، فضلاً عن أنهم حرروا الأسري المسيحيين من قبضة تميم، إلا أنهم خسروا قائد الحملة هوجو الذى سقط قتيلاً، وقد خلدت "كارمن" ذكراه، ورفعته إلى مصاف الشهداء الأبرار[١١٢].

مهما يكن من أمر عاد البيزيون والجنوية أدراجهم وهم محملين بالكثير من الأموال والغنائم التى أرسلوا جزءًا منها إلى البابا فيكتور. وقد استخدم البيزيون هذه الأموال فى بناء كنيسة لقديسهم سان سيكستوس St. Sixtus ، وتزيين كاتدرائية المدينة[١١٣].

ومما يُشار إليه أن هذه الحملة عادت بفوائد بالغة الأهمية على القوى السياسية والدينية التى شاركت فيها: بالنسبة للبابوية تركت الحملة انطباعًا لدى منافسيها وعلى رأسهم الإمبراطورية الرومانية المقدسة: بأن البابا يمكنه أن يجمع القوى الإيطالية ويشكل منها جيشًا

أن يدفع لهم هذا المال ثم يترك رعاياه فى أيديهم، ويؤيد ذلك ابن الأثير حين ذكر أن تميم انقدهم ثلاثين ألفا مقابل إطلاق سراح الأسري المسلمين، انظر: الكامل، ٨/ ٤٥٥؛ أما النويري فذكر أنه دفع لهم ثمانين ألفا، شريطة الأسرى المسلمين، نهاية الارب، ٢٤/ ١٢٧.

(١٠٩) كارمن، مقاطع ٥٨– ٦٠؛ أيضًا انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٣٧؛ أرشيبالد لويس، القوى التجارية.، ص ٣٧٢.

(١١٠) كارمن، ٥٨– ٦٠.

(١١١) Malaterra, *Deeds*, IV, p. 179.

(١١٢) كارمن، مقاطع ٣٩– ٥٧.

(١١٣) كارمن، مقاطع ٧٠– ٧٢.

لمحاربة أعدائه. ولذلك استفاد البابا أوربان الثاني(١٠٨٨– ١٠٩٩م) من علاقة سلفه الجيدة بالقوى الإيطالية، فألحق الخزي والهزيمة بحكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة[١١٤]. كما مهدت حملة المهدية لهذا البابا لأن يخطط للمشروع الصليبيى، وشجعته على تنفيذه لاحقًا.

أما بخصوص مدينتى بيزا وجنوة فقد تخلصتا من عدو شرس، طالما هاجم سواحل أوربا، كما أنهما استراحتا من منافس تجاري كان يزاحمهما بنشاطه في البحر المتوسط، فضلاً عن هذا منحت هذه الحملة ونتائجها المدوية جرأة للقوى الأوربية، لكى يهاجموا المدن الإسلامية دونما خوف أو تردد[١١٥].

في نفس الوقت تركت هذه الحملة أثار سلبية على مدينة المهدية[١١٦]، إذ خسرت نفوذها السياسي، كما ضاعت أهميتها التجارية، ووقع حكامها اللاحقون في خلافات داخلية، ولجأوا إلى نورمان صقلية لكى يقضوا في منازعاتهم[١١٧]. وهذا أعطى النورمان فرصة لأن يطلعوا على الشؤون الداخلية فى مدن شمال أفريقيا، ويمهدوا بعد ذلك للاستيلاء على معظم الساحل الأفريقي كما فعل الملك النورماني روجر الثاني (١١٠٥– ١١٥٤م) في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[١١٨]، ولذلك لا نبالغ إذا قلنا أن حملة المهدية كانت المدخل لاستيلاء النورمان على الساحل الأفريقي.

---

(١١٤) انظر تفاصيل ذلك فى: خالد عبدالبديع، العلاقات بين البابوية والنورمان، ص ١٣٠.

(١١٥) Bragadin, *Hist. des républiques maritimes Italiennes*, pp. 35- 36;
ذكر ابن عذارى أن أهل روما "الرومانيون" هاجموا المهدية سنة ٤٩٨ه/ ١١٠٤، لكنهم فشلوا في دخولها، انظر: البيان، ١/ ٣٠٢– ٣٠٣؛ وحول تلك الحملة انظر: جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص ٢٥٤.

(١١٦) ذكر أحد الشعراء أبيات يرثى فيها ما جرى للمهدية:

أنى يلُم الخيال أم يقفُ وبين أجفاننا نوى قذفُ
غزا حمانا العدو فى عدد هم الدبا كثرة والنغفُ
عشرون ألفا ونصفهم ائتلفوا من كل أوب بيسما ائتلفوا
جاءوا على غرة إلى نفر قد جهلوا فى الحروب ما عرفوا

انظر التجانى، رحلته، ص ٣٣٢؛ ابن عذارى، البيان، ١/ ٣٠١

(١١٧) ابن خلدون، تاريخه، ٦/ ٢١٣ وما بعدها

(١١٨) ابن خلدون، تاريخه ، ٢١٤ وما بعدها.

[١١٩]Carmen in Victoriam Pisanorum

1. ubis et lanternis processit ad praelium; nil armorum vel scutorum pertendit in medium; sola virtus Creatoris pugnat terribiliter, inter se Machanitis (I. Madianitis) caesis terribiliter.
4. Sunt et (hi) Machanite (I. Madianitae) signati ex nominee; hos in malo nam Madia nutriebat homine; sita pulchro loco maris civitas haec impia, quae captives constringebat plus centena milia.
5. Hic Timinus praesidebat, Saracenus impius, similatus Antichristo draco crudelissimus; habens portum, juxta urbem, factum artificio, circumseptum muris magnis et plenum navigio.
6. Hic tenebat duas urbes opibus ditissimas, et Saracenorum multas gentes robustissimas; stultus et superbus nimis elatus in Gloria, qua de causa Pisanorum fit clara victoria.
7. Hic cum suis Saracenis devastabat Galliam, captivabat omnes gentes que tenent Ispaniam, et in tota ripa aris turbabat Italiam; predabatur Romaniam usque Alexandriam.
8. Non est locus toto mundo neque maris insula, quam Timini non turbaret (h)orrenda perfidia; R(h)odus (et) Ciprus (Cyprus) (et) Creta, simul et Sardinia vexabatur et cum illis nobilis Sicilia.
9. Hinc captivi redemptorem clamabant altissime, et per orbem universum flebant amarissime; reclamant ad Pisanos planctu miserabili; concitabant Genuenses fletu lacrymabili.
10. Hoc permotus terrae motu hic uterque populus, iniecerunt manus suas ad hoc opus protinus, et component mille naves solis tribus mensibus, quibus bene praeparatus stolus lucet inclytus.
11. Convenerunt Genuenses virtute mirabili, et adiungunt se Pisanis amore amabili; non currant de vita mundi nec de suis filiis; pro amore redemptoris se donant periculis.
12. His accessit Roma potens potenti auxilio, suscitatum pro Timini infami martyrio; renovator hinc in illa antiqua memoria, quam illustris Scipionis olim dat Victoria.
13. Et refulsit inter istos cum parte exercitus, Pantaleo Malfitanus inter Grecos sipantus; cum forte et astuta potenti astutia, est confusa maledicti Timini versutia.

([١١٩]) Edélestand du Méril, Poésies Populaires Latines du moyen âge, Paris, 1847, pp. 239- 251.

14. Hos conduxit Jhesus Christus quem necabat (Negabat) Africa, et construxit omnes ventos praeter solum Japiga; Cherubin emittit illum cum aperit hostia, qui custodit paradysum discreta custodia.
15. Pervenerunt navigando quondam (quadam) maris insulam, quam Pantalaream dicunt cum arce fortissima; hujus incolae palumbos emittunt cum literis, qui renuntient Timino de viris fortissimis.
16. Hic est castrum, ex natura et arte mirabile, nulli umquam (unquam) in hoc mundo castrum comparabile; duo millia virorum hoc tenebant oppidum, qui nec Deum verebantur nec virtutem hominum.
17. Accesserunt huc econtra mirandi artifices, et de lignis nimis altis facti sunt turrifices; destruxerunt occiderunt sicut Deus voluit, et fecerunt quod a mundo numquam credi potuit.
18. Sex ut puto soli viri qui exisse viserant; alios mandant palumbos qui factum edisserant; quo audito rex Timinus desperate de viribus, et hoc factum perturbatus tractat cum principibus.
19. Inter hec regalis stolus discedit et navigat, et iam videt illas urbes quas Timinus habitat; mare terra muri pleni paganis teterrimis, quos conduxerat superbus ab extremis terminis.
20. Hic incepit adulando demulcere populum, et captivos promittendo pertrahebat otium; set hoc sprevit Benedictus astutus, Dei nutu illuminatu, luce Sancti- Spiritus.
21. Vocat [ad se] Petrum et sismundum principales consules, Lambertum et Glandulfum cives cari nobiles; revelat quod hoc Timinus facit ex insidia, hoc totum ex tradimento et mira perfidia.
22. Hinc conscendunt parvas naves tracti ad concilium; decreverunt solam pugnam tracti ad prelium, ut hoc solum judicaret divinum judicium.
23. Hoc fuit antiquum festum sancti Sisti nobile, qui sunt semper Pisanorum de coelo victorie; in hoc Benedictus presul populum alloquitur, et sillentio indicto murmur omne moritur.
24. Preparate vos ad pugnam milites fortissimi, et pro Christo omnis mundi vos obliviscimini; maris iter restat longum non potestis fugere; terram tentent quos debetis vos hostes confundere.
25. Non expavescatis de eorum numero, nam sunt turpiter defuncti timentes in heremo; neque vos conturbent domus altis hedificiis; Hierico namque prostrate cum muris altissimis.
26. Inimici sunt factoris qui creavit omnia, et captivant Christianos per inani gloria; mementote vos Golie gigantis eximii, quem prostravit unus lapis David parvi puerii.
27. Machabeus ille clarus confidens in Domino, non expavit ad occursum plurimorum hominum; nec confidens in virtute cujusquam fortissimi, sed in maiestate sola Dei potentissimi.

28. Vos videtis Pharaonis fastum et superbiam, qui contempnit Deum coeli regnantem in saecula; Dei populum affligit et tenet in carcere; vos conjuro, propter Deum iam nolite parcere.
29. Hinc incitamentis claris multis similibus, inardescunt omnes corde irritantur viribus; offerunt corde (de)vote Deo poenitentiam, et communicant vicissim Cristi eucharistiam.
30. Universi creatorem laudant unanimiter; habent vitam atque mortem utrumque similiter; invocabant nomem tuum Jhesu bone coelitus, ut turbares paganorum triplices exercitus.
31. Jam armati petunt terram cum parvis naviculis, et tentabant maris fundum cum (h)astis longissimis; se demergunt ut leones postquam terram sentiunt; aquilis velociores super (h)ostes irruunt.
32. Et excelsi Agareni invocant Machumata, quod conturbavit orbem terre de sua perfidia; inimicus trinitatis atque sancta fidei, negat Jhesum Nazarenum verbum Dei fieri.
33. Sed fit clamor Pisanorum altus et nobilior, nam intonuit de cello sonus terribilior: Michael cecinit tuba ad horum praesidium, sicut fecit pro dracone cum commisit prelium.
34. Altera ex parte Petrus cum cruce de gladio, Genuenses et Pisanos comfortabat animo, et conduxerat huc princes coetum apostolicum; nam videbat signum sui cum scarsellis populum.
35. Et econtra Agareni concurrunt similiter; telis spatis et sagittis hos petunt (h)ostiliter; fit hic pugna dura nimis, sed in parvo tempore, nam coeperunt Agareni statim terga vertere.
36. Misit namque Deus coeli angelum fortissimum, qui Sennacherib percussit mudcte exercitum; qui (quod) cum vident hi qui stabant intra muros fieri, obser(r)arunt portas illis qui fugebant miseri.
37. Occiduntur et truncantur omnes quasi pecudes; non est illis fortitudo qua possint resistere; perimuntur in momento paganorum milia, antequam intrarente portas et tenerent menia.
38. Postquam desuper et subter intrarunt fortissime, pervagantur totam urbem absque ulla requie; occiduntur mulieres virgines vidue, et infants alliduntur ut non possint vivere.
39. Non est domus neque via in tota Sibilia, que non esset rubicunda et sanie livida; tot Saracenorum erant cadavera misera, que exalant iam fetorem per centena millia.
40. Urbs est una desolata festinant ad aliam, et contendunt transilire ad alta palatial; ubi stabat rex Timinus satis miserabilis, qui despiciebat Deum ut insuperabilis.
41. Jussit portas aperire et leones solvere, ut turbarent Christianos pugnantes inprovide; set converse sunt leones ad honorem glorie, nam vorarunt saracenos in laude victorie.

42. Hic evenit tibi Pisa magnum infortunium, nam hic perdis capud urbis et coronam iuvenum; cadit Ugo vicecomes omnium pulcherrimus; dolor magnus Pisanorum et planctus miserrimus.
43. Nam cum omnes Saraceni erupissent subito, sustinet hic mille viros cum asta et clippeo; cum nescit cessare loco et recusant fugere, mille cesis Saracenis cadit ante iuvenes.
44. Hic inponunt illum scuto et ad naves deferent; plangent omnes super illum quasi unigenitum; O decus et dolor magnus Pisanorum omnium! O confusion triumphi et magnum incommodum.
45. O dux noster atque princeps cum corde fortissimo! Similatus rex Grecorum regi nobilissimo, qui sic fecit ut audivit responsum Apollinis; nam ut sui triumphi et magnum incommodum.
46. Sic infernos spoliatur et Sathan destruitur, cum Jhesus redemptor mundi sponte sua moriture; pro cuius amore care et cuius servitio, martyr pulcher rutilabis venturo iudicio.
47. Non iacebis tu sepultus ha in terra pessima, nec te tractent Saraceni qui sunt quasi bestia; Pisani nobiles te ponent in sepulchrum patrium; te Italia plorabit legens epitaphium.
48. Erimus in domo tua fideles et placidi, et vivemus apud tuos tutores et baiuli; nullus umquam contra tuos levabit audaciam, quia tu care pro Pisa posuisti animam.
49. Non est mora corpus findunt et eiectant viscera; balsamum infundunt multum et cuncta aromata, et component quadam capsa de lingo composito, ut mater et coniux eum videant quoquo modo.
50. Hinc exarsit ira tanta his et Genuensibus, quod non homo neque murus neque quicquam penitus, valet horum sustinere furors et fremitus; unde fit Saracenorum maximus interitus.
51. Sic irrumpunt omnes portas et Madiam penetrant, et accurrunt illuc prope quo stat fera pessima, que turbabat omnes gentes de sua perfidia; modo latet circumclusa in muris altissima.
52. Alii petunt meschitam pretiosam scemate; mille truncant sacerdotes qui erant Machumate, qui fuit heresiarcha potentior Arrio, cuius error iam permansit longo mundi spatio.
53. Alii confudunt portum factum mirabiliter; darsanas et omnes turres perfundunt similiter; mille naves truant inde que cremantur litore, quarum incendium Troie fuit vere simile.
54. Alii irrumpunt castrum atque turres diruunt; equos regios et mulas omnes interficiunt; aurea vexilla mille traunt et argentea, que in Pisa gloriosa sunt triumphy premia.
55. concurrentes pervenerunt ad illud palatium, mille passuum ut credo quod tenebat spatium, quinquaginta cubitorum murus latitudine, erat idem quater tanta murus altitudine.

56. Super hunc procere turres ad nubes altissime, ubi vix mortalis homo iam possit aspicere; scale facte circumflexe faciles contendere , ubi nullus neque valet neque scit ascendere.
57. Multitudo paganorum hoc tenebant cassarum, nam Cassandi sic appellant hoc tale palatium, quod Pisani circumfuse contendunt destruere; set lassati iam non audent hoc tale confundere.
58. Et jam isti fatigati pausabant in requie; ipse rex misellus nimis pacem cepit petere; donat auri et argenti infinitum pretium; ditat populum Pisanum atque Genuensium.
59. Juravit per Deum celi suas legens litteras, iam ammodo Christianis non ponet insidias, et non tollet tulineum his utrisque populis, serviturus in eternum eis quasi dominis.
60. Terram iurat sancti Petri esse sine dubio, et ab eo tenet eam iam absque conludio; unde semper mitter Romam tributa et premia; auri puri et argenti nunc mandat insignia.
61. Et cum starent ad videndam donorum potentiam, ecce gentes Arrabites intrarunt Sibiliam; leves multum supra modum cum discurrent pedites, euro vento leviores cum bellantur equites.
62. Docti retro et astuti fugando respicere, valent melius in fuga hostes interficere; leviores super omnes gentes in giro volubiles, macris equis insidentes corporibus ductiles. Fo. 65v.
63. Et (h)istorum tam valentium iam centena milia, urbs relica a Pisanis tenebant subilia; ripa maris insistentes et implentes litora, turbant reliquos Pisanos servants navilia.
64. Quod cum audiunt qui stabant in Madia nobiles, plus quam leopardi currunt ordinati mobiles; ipse rex Timinus spectat altis edificii letaturus utriusque populi periculis.
65. Sed nec armis nec virtute confiderunte Arabes, fuga nimium veloces fugientes agiles; nam quicumque remanserunt depugnantes manibus, Pisanorum figit telum et detruncant gladiis.
66. Sic Madia superata recepta Sibilia, iam Pisani gloriosi intrarunt navilia; destruxerunt ptetiosa passim edificia, cuncta simul reportantes cum parvis eximia.
67. Captivorum persolverunt plus ad centum milia, quos receipt Romania iam ex longo misera; Saracenos et captivos ducunt sine numero, quod est totum tuum donum Jhesu sine dubio.
68. Ecce iterum Eberi Egyptum expoliant, et confuso Pharaone iterum coniubilant; transeunt in mari mango ut terra siccissima; Moyses educit aquas de petra durissima.
69. Nam ut veniunt ad Curras quasdam maris insulas, ubi nullus vidit aquas ad potandum limpidas; fit hoc visu et auditu nimis admirabile, terra parum circumfossa potant aquas largiter.

70. Sunt reversi gloriosi virtute mirabilis, et quo durat iste mundus honore laudabili; sancto Xisto consecrarunt perpulchram ecclesiam, et per orbem universum sanctis mandant premia.
71. Set tibi regina celi stella maris inclita, donant cuncta pretiosa et cuncta eximia, unde tua in eternum splendebit ecclesia, auro gemmis margaritis et palliis splendida.
72. Clericis qui remanserunt pro tuo servitio, donaverunt partes duas communi consilio; sic volebas tu regina sic rogasti filium, cuius illis prebuisti in cunctis auxilium.
73. Sit laus tibi trine Deus unus et altissime, super omnes gloriose in cunctis fortissime, qui timere et amare debes super omnia, cuius manet sine fine sempiterna Gloria. AMEN.

أنشودة انتصار مدينة بيزا

١- أننى أنعش ذاكرة الرومانيين القدماء بذلك التاريخ المدون عن أهل بيزا الجديرين بالثناء، لأن بيزا قد توسعت بصورة جديرة بالمديح والأعجاب، حتى أنها قد تحالفت مع روما لهزيمة قرطاجة.

٢- بداية فأننى أمتدح بشدة اليد القوية جداً للمسيح المُخلص، التى قضت على الجنس غير الورع فى المدينة البيزية، وقد كان معجزة للأخيار، لأن الإله الواحد قد أتمها تحت السماء الواسعة.

٣- ولقد تقدم هذا بنوافير ومشاعل الحرب إلى المعركة ، ولقد اندفع إلى الوسط بدون أسلحة أو دروع ، وبشهامة الخالق المتفردة أخذ يحارب مثيراً الرعب . ولقد أثار الرعب بين المكانيين {الماديانيين} أنفسهم بعيون رمادية.

٤- هؤلاء المكانيون { الماديانيون}(يقصد المسلمون) كانوا معروفون حتى دون أسماء، وأخذت ماديا (المهدية) تغذيهم بالشر البشرى، حتى استقر هؤلاء المواطنون الجاحدون فى مكان جميل على البحر، وكان لديها من الأسرى أكثر من مائة ألف.

٥- فهذا تيمينوس (تميم) كان فى المقدمة، الكافر الجاحد- الشبيه بالثعبان- الوقح المتحكم فى الميناء القريبة من المدينة، والمشيدة بمهارة والمحاطة بالبحر العظيم والممتلئة بالسفن.

٦- كان يتحكم بثرواته فى مدينتين ثريتين جداً، وفى قبائل كثيرة من الساراكينيين (المسلمين) القساة جداً ، ورغم غبائه إلا أنه كان ذو مكانة فى جلوريا (اسم لشمال أفريقيا قديمًا)، التى كانت مشهورة بإنتصارها على أهل بيزا.

٧- وكان يخرب غالة تماماً مع الساراكينيين أنفسهم. وأخذ يأسر كل القبائل التى كان يسيطر عليها فى أسبانيا، وأخذ يزعج إيطاليا بطول سواحلها، حيث روما نفسها كانت تتعرض للسلب، وأيضاً كل مكان على ساحل البحر حتى الإسكندرية.

٨- لم يكن هناك مكان واحد خاليا ولا حتى جزيرة بالبحر، ف (تميم) كان يفرض الخوف والرعب على البحر، ويُغير بشكل دائم على كل من: رودس وقبرص وكريت وسردينيا ، وأيضاً صقلية التي أذل نبلائها.

٩- أخذ الأسرى يستصرخون المُخلص بصوت عال جداً ، ويبكون بمرارة لاذعة، ويوبخون أهل بيزا بعنف وحزن بائس، بينما كانوا يحرضون سكان جنوة بالبكاء الدامع.

١٠-وتحت تأثير كل هذا أطلقت هذه الشعوب أياديها نحو العمل فى الاتجاه الصحيح. وأخذ الفصيل الثالث من الشعب الرومانى يُعد آلاف السفن خلال شهور عديدة، وإن ما تم إعداده بشكل جيد من هذه الأشياء لصار يشع بالضوء الباهر.

١١-اتحد أهل جنوة بشهامة عجيبة ، وأخضعوا أنفسهم لأهل بيزا بحب مقبول، ولم يسرعوا بعيداً عن حياة العالم ولا بعيداً عن أبنائهم، كما كان من قبل حب المسيح فإنهم يمنحونهم الخبرة.

١٢-ولقد امدت روما القوية يد المساعدة، والتى أخذت تحرضهم ضد "تميم" سيئ السمعة فى الوقت المناسب، واستعادت ذكرياتها المجيدة على هذا النحو، وأخذت توضح أن "سكيبيو" ذات مرة استطاع أن يحقق نصراً على قرطاجة.

١٣-ولقد انضم إلى هذا التحالف أيضًا الأمالفيون بقيادة بنتاليونى. وهكذا تمكنت الوحدة منهم بقوة ومهارة، بينما وقعت الفُرقة بين أتباع "تميم".

١٤-لقد وحدهم يسوع المسيح الذي أنكرته أفريقيا. ولقد أثار جميع الرياح على أنحاء أرض يابيجا. ولقد أفرج عن شاروبين هذا مع ضحيته. والذى أخذ يدافع بصورة رديئة عن شهادة الزور.

١٥-وذات يوم وصلوا عن طريق الإبحار لجزيرة في البحر، وأنهم بلغوا جزيرة بنتالاريا "قوصرة" التي تتميز بقلعة قوية جداً، ومواطنوها أطلقوا الحمامات المطوقة – الزاجل- بالرسائل حتى يُخبروا "تميم" عن قدوم رجالنا الأشداء البواسل.

١٦-وهذه هى قلعة بنتالاريا: فمن الناحية الطبيعية والفنية كانت مصنوعة من الرخام، ولا يمكن أن تشبهها قلعة أخرى فى هذا العالم. يحافظ على مدينتها ألفان من الرجال وأنهم لا يؤمنون بالرب ، ولا تنقصهم الشجاعة.

١٧-وكانت هناك منشات رائعة في القلعة ، فأبراجها وأعمدتها كانت مصنوعة من أخشاب كثيرة، وأنها لا يمكن أن تسقط أو تتحطم إلا إذا شاء الرب. ولا يمكن أن يحدث هذا لأن من لديه القدرة على العالم أهل للثقة.

١٨-وبشكل ظاهر فقد ذهب ستة رجال فقط للأستكشاف، وسلموا حمامات زاجلة أخرى وأطلقوا سراحها للعمل، كان يُدار هذا العمل ويُنظم من بداياته ولكن فى حالة أضطراب وتشويش.

١٩-وبهذا المظهر الملكى ارتحل وأبحر إليهم حتى يرى بنفسه تلك المدن التى يسيطر عليها (تميم)، والتى بسبب البحر واليابسة فإن حوائطها مكتظة وتفوح منها راحة قروية كريهة جداً. ومن أقصى الحدود البعيدة أخذ يتحدث معهم بصورة رائعة.

٢٠-وبدأ بالتودد للشعب كى يتقبله وأخذ يُغرى السكان مقدماً لهم وعداً بالسلام، ولكن "بندكت" الماهر أزاحه بإمائة واضحة من الرب وبضوء من الروح القدس.

٢١-واستدعى لهم بطرس والقناصل القدامى ولامبرتوس وجلاندونوس المواطنين النبلاء الأعزاء، ولأن "تميم" ظهر هكذا فقد بدأ يتصرف من مخبأه، إلا أنهم تخلوا عنه بصورة غادرة عجيبة.

٢٢-ومن هناك صعد راسلى الرسائل أعلى سفن صغيرة ووجهوها نحو الاجتماع. وأخذ المراسلون يقللون فرص الحرب القادمة، بينما أخذ هو وحده يتكهن الرأى الصائب.

٢٣-وفى أثناء هذا العيد القديم الخاص بالقديس سيستوس الذى كان يقام بشكل مجيد. فإنهم دائما ما كانوا يحققون النصر على أهل بيزا بمساعدة السماء، والذى أثنائه تحدث (بندكت) إلى شعبه فى جرأة ، وهكذا قضى على كل همهمة بخرس مميت.

٢٤-عليكم أن تستعدوا يا أشجع الجنود للمعركة، وتواجهوا كل العالم المجنون من أجل المسيح، وتحتفظوا بمكانكم على الطريق الطويل للبحر حتى لا يهرب القادرون، وعليكم أن تسيحوا فى الأرض خشية أندفاع أعدائكم بينكم.

٢٥-وعليكم ألا تخشوا أعدادهم، لأن الخائفون ينجزون أعمالهم بصورة سيئة بسبب الرعب. وعليكم ألا ترتبكوا، وعليكم أن تقهروهم رغم وجود الحوائط الشاهقة الأرتفاع.

٢٦- وعندما يكون الأعداء هم المتصدون لمن خلق كل شئ ، وقد أوقعوا المسيحين فى الأسر من أجل مجد فارغ فعليكم أيها العماليق المختارون أن تتذكروا "جالوت"، الذى قهره داوود وهو لا يزال صغيرا بحجر واحد.

٢٧-لم يكن يهوذا الماكابي نفسه المشهور بالثقة يخشى الحشود البشرية الكبيرة، ولم يصبح أهلا للثقة لقبيلته التى مرجعها الشجاعة الفائقة، ولكنه حقق النصر بسبب عظمة الإله القادر وحده.

٢٨-ألم تروا عجرفة وغطرسة الفرعون الذى أساء لرب السماء، وتحكم فى الأجيال، ولقد هزم شعب الله وحاصرهم فى سجن، ولكنه هُزم في النهاية ودُحر، وأننى أستحلفكم بألا تقنطوا من رحمة الرب الآن.

٢٩- ومن ثم فإنه بسبب الدوافع الكثيرة المعروفة والمتشابهة فلقد احترقت قلوبهم جميعهم من أجل الرجال الذين تم إثارتهم. وأخذوا يظهرون توبتهم للرب بقلب صاف. وأخذوا يتواصلون ثانية عبر المائدة العائلية السنوية للمسيح.

٣٠-ويمتدح الاجتماع خالق الكون، وبالمثل كانت لهم سلطة التحكم فى الحياة والموت أيضاً. وكانوا ينادون اسمك يا يسوع السماوى بشكل جيد. وذلك حتى تزعج أيها القادر ثالوث القرويين.

٣١- والآن فإن المسلحين أخذوا يجوبون الأرض بمراكب صغيرة، وكانوا يستكشفون قاع البحر بحرابهم الطويلة جداً.

٣٢- وأخذ الأجارينيون – أهل أجارا- العالون ينادون على ماكوماتوس، لأنه كان قد أربك المدينة بالخوف بذات الخديعة، إذ أنه عدو للثالوث. وأنه ينكر يسوع الذى أصبح كلمة الرب الأبدية.

٣٣-ولقد كان ذو شهرة عالية وأكثر نبلاً بين أهل بيزا، لأنه كان ذو صوت أكثر رعباً كأنه يصدر من السماء، إذ أن ميكائيل توجه بنفيره نحو مكان الدفاع المفزع، وأستخدمه كما لو كان أمام ثعبان أو مترنحاً من أثر الخمر.

٣٤-بينما بطرس ذلك الأخر من نفس الحزب كان يترنح بالصليب والسيف، فقد كان يشجع بقلبه أهل جنوة وأهل بيزا، وبهذا الأمر فلقد قاد ملوك الاجتماع الرسولى، وذلك لأنه كان يرى إشارة تحرك الشعب.

٣٥-وبالمثل فإن الأجاريين كانوا يسرعون على النقيض ويوجهونهم بشكل عدائى فى الأماكن المفتوحة بالأسلحة الهجومية وبالحراب، وهكذا فلقد كانت لديه حرب قاسية جداً ولكن فى وقت قصير . ذلك لأن الأجاريين بدأوا فى التخلى عنه.

٣٦-وبالفعل أرسل رب السماء بشارته القوية جداً والتى ضربت سنحاريب المزعج، والذى برؤيته تلك أخذوا يستقرون داخل الأسوار، ويوصدون أبوابهم والتى كانت تُشع خوفاً .

٣٧-لقد قتلوهم ومثّلوا بهم كما لو كانوا قطيع من الأغنام. ومن ثم فلم تكن الشجاعة كافية لهم بقدر أنه كان عليهم إستحضار مساندة من الخلف، ومن ثم ففى تحركهم قد دُمرت الألاف من القرى فكانوا يدخلون الأبواب فى البداية ثم يعملون على تحطيم الأسوار.

٣٨- وبعد ذلك كانوا يدخلونها من أعلى وأسفل بالقوة، ثم ياخذون فى التجول عبر المدينة كلها بدون أية راحة. ويأخذون فى قتل النساء والفتيات والأرامل، وكانوا يرطمون الرضع بالأرض حتى يفقدونهم الحياة.

٣٩- لم يكن هناك منزلاً ولا شارعاً فى كل سيبيليا (زويلة) إلا وكان به دم سائل أحمر ومتجلط أسود. ولقد كانت هناك أجساد كثيرة بائسة للساراكيين(للمسلمين) ينفث منها الآن رائحة كريهة لمدى مئات الأميال.

٤٠-كان هناك مدينة واحدة معزولة وقد أسرعوا نحوها، وأخذوا يتنقلوا فيها بين القصور الواسعة حيث كان يقيم الملك (تميم) المثير للشفقة بدرجة كافية. والذى كان يحتقر الرب الذى لا يمكن أن يُحتقر.

٤١-ولقد أمر بفتح الأبواب وبتحرير الأسود وذلك حتى يزعجوا المسيحيين الذين كانوا يحاربون بإهمال، إلا أن الأسود كانت تلتف إلى الوراء – ياللمجد السماوي- وأخذت تبتلع الساراكيين (المسلمين) بشكل يمكن وصفه بنصر عظيم.

٤٢-لكن أتى العقاب العظيم إليك يا بيزا. فقد تم تدمير رأس المدينة وتجمعها الشبابى، الرفيق " هوجو" الأكثر جمالاً أسقط كل شئ، ألم عظيم لأهل بيزا ودمار أكثر بؤساً.

٤٣- إذ فجأة أخذ جميع المسلمين ينفجرون معاً، وأخذ هذا – تميم- يدعم ألاف الرجال بالرماح والدروع ، وأصبح لا يعرف كيف له أن يتشبس بمكان بينما رفضوا هم الهرب، وقُتل ألف من الشباب بواسطة المسلمون القادمون.

٤٤-وبواسطة الدرع المستطيل استقر هؤلاء هناك وحُمّلوا إلى السفن، وأخذوا يضربونهم جميعهم فوق هذا المكان كما لو كانوا نباتات مجتمعة معًا، فيا أيها المجد والألم العظيم لأهل بيزا، ويا للكارثة العظمى التي أفسدت الانتصار.

٤٥-يا قائدنا وأميرنا أيضاً بقلبك القوى جداً، إن الملك سيميلاتوس مع ملك اليونانيين العظيم جداً أخذ يتصرف كما لو كان قد استمع لإجابة أبوللو عن انتصاره وعن الكارثة العظمى.

٤٦-وهكذا جُرِدَت الطبقات السفلى ودُمِر الساثان. بينما يسوع الفدائى بموته من أجل البشر ومن قبل محبته اللطيفة وخدمته ، فيا أيها الشهيد الجميل (هوجو) أنك سوف تُضرب باللون الأحمر بسبب مغامرتك العادلة.

٤٧- أنك لن تُدفن فى الارض بصورة سيئة، ولن يجرك المسلمون الذين هم كالحيوانات المفترسة، بل يضعك نبلاء بيزا فى مقبرة خاصة بأبائهم. وإيطاليا المتوحدة سوف تبكيك بخطاب جنائزى.

٤٨-أننا لمخلصون وصادقون وسوف نذهب إلى منزلك ، وننعيك بشرف. ولن يظهر أحد إساءة ضدك فى أي وقت ، وذلك لأنك سوف تؤسس فى بيزا حياة المحبة.

٤٩- لم يكن هناك تأخير حتى يشقوا الجسد ويخرجوا منه الأحشاء بالقوة، وأخذوا يصبون بلسم كثير وكل أنواع المعطرات، ووضعوه فى صندوق زجاجي حتى يمكن للأم والزوجة ان تراه من أية موضع.

٥٠- وبسبب هذا خرج الغضب كله منهم (أهل بيزا) ومن أهل جنوة. ولا يمكن لبشر أو حائط ولا أى شئ أخر مهما بلغ أن يقف ضدهم، خاصة وأن الضجيج والجنون كان يدعمهم ، ومن ثم فلقد كانت الإبادة الأعظم للمسلمين.

٥١-وهكذا اندفعوا من كل الأبواب واخترقوا ماديا (المهدية) وأسرعوا نحو ذلك المكان والذى بالقرب منه كان يقبع هناك أسوء حيوان مفترس (تميم) ، والذى أزعج جميع الأجناس بسبب خيانته، والذى عندما تم تطويقه اختبأ بشكل ما فى الحوائط الشاهقة الأرتفاع.

٥٢-لقد وجه الأخرون الميسكيتا ذات القيمة بآداء مسرحى فآلاف الكهنة أخذوا يقتلون هؤلاء الذين كانوا فى ماكوماتيس والتى كان بها المبتدع أريوس الأقوى، وخطأه الآن صار مُطبقاً بجميع أنحاء العالم.

٥٣-لقد توغل الأخرون داخل الميناء المصنوع بشكل رائع، وبللوا كل الأبراج بالمثل، فتخلفت آلاف السفن هناك حتى اشتعلت النيران بها عند الشاطئ، وأصبح نيران البعض منها مشابهاً تماماً لما جرى في طروادة.

٥٤-واندفع الأخرون نحو القلعة وأخذوا يدكون الأبراج أيضاً ويقتلون الخيول الملكية وأنثى البغال جميعها، ويدمرون آلاف الشارات – الرايات- الذهبية والفضية والتى كانت تعنى ل (بيزا) رمزا للمجد والنصر .

٥٥-وعندما تقابلوا فلقد توجهوا نحو ذلك القصر حتى أن آلاف من المشاة كانوا يسيطرون عليه من غرفة إلى غرفه والتى كان حائطها يبلغ خمسون ذراعاً فى عرضه ومن حيث الأرتفاع فلقد كان كل حائط يماثل أربعة أمثال هذا.

٥٦-ومن فوق المقدمة كانت الأبراج تصل للسحب العالية جداً ، حيث أنه يمكن للبشر الآن أن يشاهدونه، ولقد تم صناعته بشكل متدرج دائرى حتى يمكن شده بسهولة، حيث أنه لا أحد يمكنه أن يقوى أو يعرف كيف يتسلقه.

٥٧-أخذ حشد كبير من القروبين يحتلونه مستخدمون الشباك، وهكذا يطلق الكاسيون عليه أنه من نوع البلاتيوم ، وأخذ أهل بيزا يربطونه بالتقويات حتى يهدمونه، لكن المنهكون الآن لا يتطلعون إلى أن ينثرونه على هذا النحو.

٥٨- والآن أخذ هؤلاء المتعبون يتوقفون بسبب العناء، والملك المشوش نفسه قد تمسك بالسلام حتى يستعد للهجوم، ولقد منحهم ثروة لا تحصى من الذهب والفضة ، وقد أثرى شعب بيزا وجنوة.

٥٩-لقد أقسم مبعوثه الشاهد على كتابه برب السماء، أن (تميم) لم يضع الكمائن للمسيحين على الأطلاق، وأنه لن يقبض على واحد من المسيحيين، وسوف يظل خادماً لهؤلاء السادة للأبد.

٦٠-يقسم بالقديس بطرس أنه لن يُحصل ضرائب من المسيحيين، ومنذ ذلك الحين يسمح لهم بالمرور إلى روما، وأن يُسلم الآن إتاوة من الذهب والفضة الصافية.

٦١-وعندما استقروا (الإيطاليون) فلقد رأوا قسوة الآلام، فهذه الأجناس العربية قد دخلت سيبيليا (زويلة)، وأخذت فرق المشاة الخفيفة تركض ذهاباً وإياباً فوق حدود كثيرة، بينما الفرسان كانوا يتوافدون للقتال من ناحية الشرق.

٦٢- كان مَن هم على معرفة ومهارة ينظرون من خلفهم راغبين قتل الأعداء أثناء هروبهم بشكل سيئ ، والأكثر خفة منهم كانوا يتفوقون على كل الأجناس بسبب حِملهم. بينما القادة قد استقروا بفضل خيولهم ذات الأجساد النحيفة.

٦٣- والآن فإن مائة ألف من هؤلاء النشيطين أخذوا يسيطرون على المدينة المهجورة من أهل بيزا، وأخذوا يستقرون على ساحل البحر ويملئون شواطئه ، ويضايقون – أو يزعجون – أهل بيزا المتخلفين للقيام بالخدمة في السفن بالمرفأ.

٦٤-عند سماع النبلاء بهذا فلقد أخذوا يستقرون فى (المهدية)، والأكثر من هذا أن النمور النظامية أخذت تُسرع من خلف الذين يهرولون ، والملك (تميم) نفسه كان يتوقع الكثرة القوية منهم وذلك بحكم خبرات شعبه.

٦٥-لكن العرب لم يعودوا يثقون لا بالأسلحة ولا بالشجاعة ، ومن ثم فلقد كانت هناك كثرة منهم يفرون لتميزهم بالخفة والسرعة، ومَن تبقى منهم فلقد حارب بقسوة بيديه. فسقطوا متمزقين بسيوف البيزيين.

٦٦-والآن فإن أهل بيزا الجديرين بالفخر قد دخلوا المرفأ، وأخذوا يهدمون الصروح الصغيرة بشكل همجى، وبعد ذلك فلقد عادوا سويا بالقليل المتبقين.

٦٧- وحرروا ما يزيد عن مائة ألف من الأسرى، واستقبلت (روما) هؤلاء الذين تعرضوا لبؤس شديد ، وقد جروا من خلفهم أسرى لا يُحصون من المسلمين، لأن كل يُصبح بلا شك فى بيتك يا يسوع.

٦٨- هنا ولمرة أخرى ينهب العبرانيون مصر، ولمرة ثانية يتضرعون بالصياح معاً ضد الفرعون المزعج، ويهاجرون فى البحر الواسع من أجل أرض أكثر جفافاً، وظلوا هكذا حتى وصلوا المياة المويسية من جهة الصخرة الأكثر وعورة.

٦٩-وعندما وصلوا إلى كورّاس؛ تلك الجزر القابعة فى البحر، حيث لا يمكن أن ترى أحد يشرب مياه نقية. ولا يمكن أن ترى أو تسمع بأعجوبة كهذه. فلما كانت الأرض – أو اليابسة- صغيرة فأنها تشرب الكثير من المياه المحيطة بها.

٧٠- إن العائدين لفخورين بشجاعتهم الرائعة، تلك التى شدت من عزيمتهم وقوّتهم بفخر جدير بالمديح، ولقد رسّموا القديس (سكستوس) كاهناً لأجمل كنيسة ، وأعلنوه للعالم أجمع كأسلافه من القديسين.

٧١-ولسوف يصبح لك ملكة من السماء وسوف تكون نجمة مشهورة فى البحر، ويمنحونك كل الأشياء القيمة وكل الأشياء المستثناة، ومن هنا فلسوف تُبرق دائماً وتشع بالذهب والألماس واللألئ .

٧٢- سوف يظل رجال الدين فى خدمتك، ولسوف يمنحونك ضعف الدخل بسبب الأستشارة، وهكذا فإنك سوف تشتهى ملكة راجياً أن يكون لك أبناً، ولسوف تحصلون جميعكم على المساعدة فى كل شئ.

٧٣-سوف يكون المديح لك بسبب الثالوث: الإله الواحد والأخرين. وأنه لجدير بالفخر فوق الجميع لقوته الجبارة، والذى يجب عليك أن تخشاه وتحبه أكثر من أى شئ، والذى له المجد الأبدى بلا نهاية . آمين.

الاختصارات

Byz = *Byzantion.*
D. M. A= *Dictionary of Middle Ages.*
EHR. = *English Historical Review.*
E. I = *Encyclopedia of Islam.*
M. E. F. R. = *Mélanges de l'Ecole Française de Rome.*
M. G. H. SS. = *Monumenta Germaniae Historica Scriptores.*
P. L. = *Patrologia Latinae*
S. C. N. A. C = *Sacrorum Conciliorum Nova, et Amplissima Collectio*
Sp = *Speculum.*

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- **ابن الأثير** (أبو الحسن على بن محمد ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٥م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبى الفداء عبدالله القاضى، بيروت، ١٩٨٧.
- **ابن بسام** (أبو الحسن علي الشنتريني ت ٥٤٢ه/ ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، القسم الرابع، بيروت، ١٩٧٩.
- **التجانى** (أبو محمد عبد الله ابن محمد ابن احمد ت بعد٧١٧ هـ/ ١٣١٧م)، رحلته، ليبيا- تونس، ١٩٨١.
- الحموى (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم البلدان، طبعة طهران ١٩٦٥.
- **ابن حوقل** (أبو القاسم محمد ت ق٤هـ/ ١٠م)، كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٩٢.
- **ابن خلدون** (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، ٢٠٠١.
- **الإدريسي** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشريف ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٥م)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، من كتاب نزهة المشتاق، ليدن، ١٨٦٤م.

  ------- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجموعة أماري فى تاريخ صقلية، فرانكفورت.
- **ابن أبي دينار** (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني ت بعد ١١١٠ه/ ١٦٩٨م)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، ١٩٦٦.
- **ابن الشماع** (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٨٦٩ه/ ١٤٦٥م)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: د. الطاهر المعموري، سكره، ١٩٨٤.

- **ابن عذارى المراكشي** (أبو العباس أحمد بن محمد ت بعد ٧١٢هـ/ ١٣٤٠م)، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٨٣.
- **العُمري**(شهاب الدين أحمد ابن فضل الله ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،مج٤، تحقيق: د. حمزة عباس، أبو ظبي،٢٠٠٢.
- **ابن غلبون الطرابلسي** (أبو عبد الله محمد ابن خليل ت بعد ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م)، تاريخ طرابلس الغرب" المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق: الطاهر أحمد الراوي، القاهرة، ١٣٤٩ هـ.
- **ابو الفدا** (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت ٧٠٣ هـ/ ١٣٣٢ م)، المختصر فى أخبار البشر، مطبعة الحسينية بالقاهرة.
- **القيروانى** (الرقيق ابو اسحاق ابراهيم ابن القاسم ت بعد ٤١٨ هـ/ ١٠٢٨م)، تاريخ أفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق د. محمد زينهم عزب، القاهرة، ١٩٩٤.
- **ابن مقديش** (محمود بن سعيد ت ١٢٢٨هـ/ ١٨٨٦م)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مخطوط بجامعة الملك سعود، رقم ٩١٥،٣/ن.م- ٦٧٦.
- **المقريزى** (تقى الدين احمد ابن على ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الإئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال،القاهرة، ١٩٦٧.
- **النويرى** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٦٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج. ٢٤، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، بيروت، ٢٠٠٤.
- **الهمذاني** (أبو محمد الحسن بن أحمد ت بعد ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ/ ١٩٣٢م.

ثانياً: المصادر الغربية:

- **Amatus of Mont Cassino**, *The History of the Normans*, trans. P. N. Dunbar, ed. & Noted by G. A. Loud, U. S. A., 2004.
- ***Annales Benventani***, M. G. H. SS, t. 3.
- **Bernardo Marangone**, *Annales Pisani*, M. G. H. SS, t. 19.
- ***Bernold***, *Chronicon*, M. G. H. SS., t. 5.
- **Bettenson, H.**, (ed.), *Documents of the Christian Church*, Oxford, 1967.
- ***Bullarum Diplomatum et Privilegiorum***, tomus II, De Alexandro II (1061) ad Alexandrum III (1181), Taurimo, 1865.
- **Caffaro**, *Annali Genovesi de`suoi Contiuatori*, Genavo, 1890.
- ***Carmen in Victoriam Pisanorum***, Edélestand du Méril, Poésies Populaires Latines du moyen Age, Paris, 1847, pp. 239- 251.
- ***Chronicon Casinense***, M. G. H. SS, vol. 3.
- ***Chronicon Comitum Capuae***, M. G. H. SS, vol. 3.
- ***Chronica Monasterii Casinensis***, Hanover, 1980.
- ***Chronica Sancti Benedicti***, M. G. H. SS. Vol. 3.

- ***Erchemperti Historia Langobardorum***, M. G. H. SS, vol. 3.
- ***Epistolae Gregorii VII***, ed. Mansi, t. 20, Lib. III, no. 21.
- **Geoffrey Malaterra**, *Deeds of Count Roger of Calabria and Sicily & of his brother Duke Robert Guiscard*, trans. Kenneth B. Wolf, U. S. A., 2005.
- **Guillaume d` Apuile**, *La geste de Robert Guiscard*, trad. Marguerette Mathieu, Palermo, 1961.
- **Lupus Protospatarius**, *Chronicon*, P. L., ed. Migne, Paris, 1880, t. 155; M. G. H. SS, vol. 5
- **Michel Psellus**, *Chronographie*, 2 vols, trad. Emile Renauld, Paris, 1967.
- ***Recueil des acts des ducs Normands d' Italie (1046- 1127)***, ed. L. Ménager, t. I, Bari, 1980.
- **Romoald of Salerno**, *Annales 893- 1178*, M. G. H. SS, vol. 19.
- ***Vita Victoris Papae III***, S. C. N. A. C, ed. Mansi, vol. 20.

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة:

- **أرشيبالد لويس**، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠- ١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠.
- **ارنست باركر**، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني ، بيروت، ١٩٦٧.
- **إسحق عبيد**، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ٨٦٩- ١٢٠٤ م، القاهرة، ١٩٧٠.
- **اسمت غنيم** ، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- **فازيليف**، العرب والروم، ترجمة: د. محمد عبدالهادي شعيرة، د. فؤاد حسين، القاهرة، ب. ت.
- **جورج مارسيه**، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمد هيكل، إسكندرية، ١٩٩١.
- **جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث**، تراث الإسلام، ج١، سلسلة عالم المعرفة، ترجمة: د. حسين مؤنس وآخرين، عدد (٨)، الكويت، ١٩٨٥.
- **خالد عبد البديع**، العلاقات بين البابوية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية ١٠٢٩- ١١٩٤ م، دكتوراه غير منشورة، آداب الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- **عبد الحليم عويس**، دولة بني حماد، القاهرة، ٢٠٠٢.
- **عزيز أحمد**، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: أمين توفيق الطيب، طرابلس الغرب،١٩٨٠.
- **عمر كمال توفيق**، مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية (٩٦٩- ٩٧٦ م)، الإسكندرية، ١٩٦٧.

- **ف. هايد**، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: احمد محمد رضا، القاهرة، ١٩٨٥.
- **قاسم عبده قاسم**، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٤٩،الكويت، مايو ١٩٩٠.
- **مارتينو ماريو**، المسلمون في صقلية، بيروت، ١٩٦٨.
- **ممدوح حسين**، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري (٦٦٨- ٧٩٢هـ/ ١٢٧٠- ١٣٩٠م)، عمان- الأردن، ١٩٩٨.
- **هنري بيرين**، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة: د. عطية القوصي، القاهرة، ١٩٩٦.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- **Aubé (P.)**, *Les empires Normands d'orient*, Perrin, 2006.
- **Bent (J.)**, *Genoa: How the Republic Rose and Fell*, London, 1881.
- **Bragadin (M.)**, *Hist. des républiques maritimes Italiennes: Venise- Amalfi- Pise- Gênes*, Paris, 1955.
- **Cahen (C.)**, *L'Orient et l'Occident au temps des croisades*, Paris, 1983.
- **Chalandon (F)**, *Histoire de la domination Normande*, 2 vols, Paris, 1907.

  ----------*Hist. de la première croisade jusqu' à l' election de Godefroi de Bouillon*, New York, 1972.
- **Citarella (A.)**, "The Relations of Amalfi with the Arab world before the Crusades", *Sp* 42 (1967), pp. 299- 312,
- **Cowdrey (H. E.)**, *The Cluniacs and the Gregorian reform*, Oxford, 1970

  ----------"The Mahdia Campaign of 1087", *HER* 92, No. 362 (Jan. 1977), pp. 1- 29.

----------"Martyrdom and the first Crusade", in: *Crusade and Settlement*, ed. P. W. Edbury, Cardiff, 1985, pp. 46- 56,

- **Curtis (E)**, *Roger of Sicily*, New York, 1912.
- **Dighfous (R.)**, "Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifriqiya à la fin du moyen âge", *M. E. F. R* 115/1(Paris, 2003), pp. 491- 501.
- **Dupont (A.)**, *Les relations commerciales entre les cités maritimes de Languedoc et les cités Méditerranéennes*, France, 1942.
- **Dvornik (F.)**, "Le Second Schisme de Photius", *Byz* 8/2 Bruxelles, 1933.
- **Erdmann (C.)**, *The Origin of the Idea of Crusade*, trans. M. W. Baldwin & W. Goffart, U. S. A., 1977.
- **Fliche (A.)**, *La réforme Grégorienne*, 3 vols, Gèneve, 1978.

- **Flori (J.)**, *La guerre sainte: la formation de l'idée de croisade dans l'occident chrétien*, Paris, 2001.
- **Gay (J.)**, *L' Italie méridionale et l' empire byzantine (867- 1071)*, 2 vols. New York, 1904.
- **Jehel (G)**, *L` Italie et le Maghreb au moyen Age (7- 15) Siècle*, Paris, 2001.
- **Lombard (M.)**, *Les méteaux dans l'ancien monde du 5 au 11 siècle*, 2 vols. Paris, 1974.
- **Loud (G)**, "Norman Italy and the Holy Land", in: *The Horns of Hattin proceedings of the crusades and the Latin east, Jerusalem and Haifa, 2- 6 July, 1987*, ed. Benjamin Z- Kedar, Jerusalem, 1992.
- **Louis de Mas Latrie**, *Relations et commerce de l`Afrique Septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen age*, Paris, 1886.
- **Marciei (E.)**, *Hist. de l' Afrique weptentrionale*, 3 vols, Paris, 1888.
- **Martin (J. M.) & Noyé (G.)**, "Les campagnes de l' Italie méridionale byzantine (X- XI Siècles)", *M. E. F. R.* 101/2 (Paris, 1989), pp. 559-596.
- **Metcalf (A)**, *Muslims and Christians in Norman Sicily*, U. K, 2003.
- **Pirenne (H.)**, *Les villes du moyen age*, Bruxelles, 1927.
- **Riant (P.)**, *Inventaire critique des letters historiques des croisades*, *Archives de l'Orient Latin*, Paris, 1881.
- **Ruinaut (J.)**, *Le schisme de Photius*, Paris, 1910.
- **Tellenbach (G.)**, *The Church in Western Europe from 10th to Early 12th Century*, Inclytorum Pisanorum scripturus historiam, antiquorum Romanorum renovo memoriam; nam extendit modo Pisa laudem admirabilem quam olim recepit Roma vincendo Carthaginem.
- **2**. Manum primo redemptoris collaudo fortissimam, qua destruxit gens Pisana gentem impiissimam; fit hoc totum Gedeonis simile miraculo, quod perfecit sub unius Deus noctis spatio.
- **3**. Hic cum ttrans., T. Reuter, Cambridge, 1993.
- **Tyerman (Ch.)**, *The Invention of the Crusades*, Hong Kong, 1998.
- **Vasiliev (A. A.)**, *Hist. de l' empire byzantine*, trad. P. Borguina, t. 2 (1081- 1453), Paris, 1932.
- **Wieruszowski (H.)**, "Roger II of Sicily, *rex- tyrannus*, in 12th century Political thought", Sp 38/I (Jan. 1963).